برنامج دبي الدولي للكتابة
Dubai International Program for Writing

عائشة العاجل

عودة ميرة

رواية

الفارابي

Qindeel | قنديل

عودة ميرة

عائشة العاجل

عودة ميرة

رواية

الكتاب: عودة ميرة **The Return of Mira**

المؤلف: عائشة العاجل **Aysha Al Ajel**

صورة الغلاف: نارا مهدي خليل

الناشر: قنديل للطباعة والنشر والتوزيع
ص: ب: 71474 شارع الشيخ زايد
دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

الموزّع: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تشرين الثاني 2015

ISBN: 978-9948-18-888-9 - الإمارات العربية المتحدة

ISBN: 978-614-432-485-1 - لبنان

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر 2015

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك، إلّا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.
موافقة «المجلس الوطني للإعلام» بدولة الإمارات العربية المتحدة رقم: (72081) تاريخ (2015/10/07)

أنجزت هذه الرواية بإشراف الروائية نجوى
بركات، في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

عن برنامج دبي الدولي للكتابة

أطلقت مؤسَّسةُ محمد بن راشد آل مكتوم في عام ٢٠١٣ «برنامج دبي الدولي للكتابة» بهدفِ دعمِ المؤلِّفين الإماراتيين والعرب والوصول بهم الى العالميَّة، وتمثِّل هذه المبادرةُ جـزءاً من المبادرات التي تطلقها مؤسَّسة محمد بـن راشـد آل مكتوم تباعاً، ومن شأنِها الارتقاءُ بمستوى المجتمعِ العربيِّ فكريّاً وأدبيّاً.

وقد جاءت هذه الرواية ثمرة ورشة التدريب التي امتدت طيلة عامٍ كاملٍ، حيث استفاد روائيون إماراتيون من التدريب على أساليب الكتابة الروائيَّة الصحيحة، وبتقنية احترافيَّة تُمَكِّنُهم من وضعِ نتاجاتِهم موضِعَ التقديرِ بين مصافّ رواياتٍ متقدِّمةٍ.

ويتضمَّن «برنامج دبي الدولي للكتابة» ثلاث مراحل: الأولى تستهدفُ مِئَةً من الشباب الكُتَّاب والمؤلفين من

مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة، والثانية تستهدفُ مجموعةً من الكُتَّاب الشَّبابِ من الإخوة العرب المقيمين على أرض الإمارات، وأخيراً ستستهدفُ المرحلةُ الثالثةُ عمومَ المؤلِّفين الشباب من الإخوةِ العربِ في الوطنِ العربيِّ الكبيرِ.

ولن يقتصرَ دعمُ المؤسَّسةِ على نشرِ المؤلَّفاتِ للأعضاءِ في البرنامجِ، بل يتعدَّاه إلى تقديمِ العونِ اللازمِ للمؤلِّفين؛ ليتجاوزوا النطاقَ المحليَّ وصولاً بهم إلى العالميَّةِ.

جمال بن حويرب
العضو المنتدب
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

الإهداء

إلى الصدق الظاهر
والحب الملهم.. أمي.

1

ألقت «فاطمة» بوشاحها النيلي الداكن، المليء بالورود والزخارف الهندية المختلطة بالشجيرات الصفراء الصغيرة، على الجدة «موزة» وقالت: شدّي يا عمتي وثاقه ليهدأ، يتعلق بطرف ثوبي ويتبعني كظلي، ولا جدوى من تهدئة روعه، يبدو أنه خائف من كثرة الوجوه التي ينكرها. يبكي الصغير مذ ولجنا البيت القديم، ولم نسمع إلا بكاءه، ولم نرَ إلا بقايانا على أعتابه يمزقها الحزن والخوف وصوت صفير خواء البيت، على الرغم من أنه يغص بالوجوه والأقدام. شدي وثاقه...

اخذت الجدة موزة عبد الرحمن، الصغير الباكي، وضمّته إليها، ثم قمطته. وبهدوء الملائكة الذي تسكن الجدة عالمه، غَطّ الصغير في سبات عميق، وهي تهدهده بصوت يكاد يسمع في ركن ركين، فمنذ جاءها خبر وفاة ميرة، انزوت ولم تبرح مكانها البتة.

غطّت الصغير بوشاح جدّته «فاطمة»، النيلي الداكن بشجيراته الصفر الصغيرة، وجلست تتلو القرآن بهدوء. يرتفع صوتها قليلاً حين ترتل آيات الصبر والسلوان والاستسلام. هكذا هن الكبيرات، الآتيات

من ذاك الزمن الجميل، يمتطين الصبر في صحراء المحن؛، ليصلن بمن معهن إلى واحات الأمان.

وقفت فاطمة، واجمة مسلوبة الحيلة، تتابع أدق التفاصيل. ملامح صويحبات ابنتها ميرة، خطوات المارين في البهو حيث تقف مستندة إلى أحد أعمدته، والجدة موزة وهي تتكئ على مسند وثير، ويرقد بجانبها عبد الرحمن في هدأة ملك.

«عمتي، تركتها لديك عند عتبة هذا البيت، وجدائلها مضفورة بالياسمين الذي تحب وتزرعين في أفيائه. لم يكن، يا عمتاه، خياري قط، فكم عانيت في غيابها، وكم تمنيت في كل مرة ألتقيها أن تشدني قائلة «خذيني إليك أمي». ولم تفعل! يا وجعي، ورثت الكثير من أبيها أحمد، ورثت العناد، وكبرت وهي تصر على أن تلتزم بقرارها مهما كلفها ذلك. وها أنذا أودعها مجدداً، مخنوقة بالتفاصيل، مكلومة بالفقد. وأحمد، يا عمتي، يمارس عناده العتيد وكبرياءه، وما زال، منذ خلافنا الذي تعهدين، يسكن منعزلاً عنا في المزرعة، ويزورنا كغريب، يقبّل الأولاد ويسألهم عن حالهم، ويسألني كعادته: هل ينقصكم شيء؟ فأجيب أنت! فيتجاهلني مودّعاً، تاركاً رائحة نزفي تختنق بالمكان، وغصة في حلقي لا تبرحه، مذ فتق نسيج علاقتنا.

زيجاته الكثيرة... ما أن يستقر مع إحداهن، حتى يبدأ بالبحث عن أخرى. لطالما شككت أنه يخفي في نفسه أمراً ما. فكلما أوشكنا على النهاية، كانت البداية بيننا من تدبير يديك. وكلما أخبرتك عن خيباتي

معه، قلتِ: «صبرٌ جميل والله المستعان على ما يصفون». صبرت يا عمتي وكففت أذني عن سماع جاراتي، وصديقاتي، وكل من يعرفه، وكل من ينصحني بخلع جذوره من مستوطنها بقلبي. أحتاجه الآن، أحتاج أن يحمل عني وعنك وعنّا، شيئاً من هذا الألم. اتصلت به ولم يجب، وتركت له رسالة ولم يفتح وارده بعد. أرسلت له حمزة السائق لينظر إن كان في المزرعة، فعاد خائباً. «فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون».

تدحرجت دموعها المتكئة على أجفان مغبونة. تنوح فاطمة، ثم تعدل عن نواحها وكأنها تستعيد فصلاً ساطعاً من حياتها لم تشأ يوماً أن تأفل نجومه أو تنطفئ أنواره. تستعيد جزءاً من روحها، تتنهّد، تستعيذ من الشيطان ووساوسه، وتذكر الله كثيراً لتهدأ. وكلما دلفت إحدى صديقاتها من الباب، أو هوت عليها إحداهن تقبّل رأسها مبدية أسفها على الغياب المفاجئ لابنتها ميرة، تداعت روحها نحو الهاوية، محتضنة كل الوجوه.

بكت مطوّلاً على كتف نورة، صديقة «ميرة» في الطفولة والصبا والشباب. أجلستها بجانبها، دنت منها في زحمة الأصوات واكتظاظ الأحاديث وتداخلها، وهمست بصوتها المبحوح: هل حدثتك؟ متى؟ ماذا قالت؟ فسّري لي يا بنيتي، لا تتركوني والظنون تلوكني؟ نورة، ما أحسه اللحظة لا يوصف ولا يبكى ولا يحكى...

اقتربت الجدة موزة، قاطعة الحديث الهامس بينهما. ربتت على

كتف فاطمة المنحني جهة الانكسار، طالبة منها التهيّب والاستعداد للبدء في غسل ميرة وتكفينها. فمنذ أن جلبوها، وهي مسجّاة على لفافة، في ركن قصيّ في الباحة الخلفية للبيت القديم، حيث تنوح أختها الصغرى ميادة، كطائر مذبوح يكاد لا يُسمع صوته، بسبب هسيس الريح وحفيف أوراق شجرة اللوز المستظلتين بها، في هذا الخريف المتهاطل بورقه وأفنانه اليابسة.

نادت فاطمة صديقاتها وقريباتها بصوت مبحوح ليشاركنها في الغسل والتكفين، ثم مضت مجرجرة ثوبها وشالها، وهي تحتضن في طريقها ابنتيها ميّاسة وميادة، وتمد يداً مرتعشة لـنورة، راجية إياها أن تسند عودها المتهاوي.

2

مغطى وجهها، وبقايا دم نافر على الخرقة التي تغطيه. خاتم يلمع في اصبعها مرصع بألماس وحجر قرمزي. ساعتها ما زالت محتبسة في معصمها الأيمن. الرمل المختلط بالخصلات السمر، الجيد الممزق والمتعثر، القدم المكسورة، الشفة اللمياء المشقوقة، الدم المتجلط الذي يحكي قصة الوقت الفائت، والسؤال عديم الجدوى.

انحنت مياسة وكشفت لحاف الوجه واللفافة التي حوّطوها بها. بكت بأعلى صوتها وانتحبت، ثم رمت بجسدها النحيل على صدر ميرة، طالبة إياها أن تعود، وفوقها ارتمت ميادة.

شعر أسود كثيف مختلط برمال الكون، وجه حنطي جميل متلوّن بوهج الشمس، مكسو بحمرة الأفق، جيد شفيف طويل وكأنه معبر، عليه علامات وكدمات لم تخفي من جماله شيئاً، بل صبغته بعلامات تتبع لأثر. أناس كثر، متلونون بالحزن، متسربلون بالخوف والوجوم. لا صوت، هي المحاجر تحكي سؤال الظنون والهاجس المسكون بالخوف. ماذا حصل؟ كيف، ومتى؟

ناشدتهن الرفق بابنتها، أودعتها على مصطبة بعد أن حملنها معها

بإشفاق، فجسد ميرة الغض مليئ بالجروح، ودماؤه تتدفق من حيث لا يدرين. وما زالت ميادة متعلقة بيديها لا تنفك من وجع يعتصر قلبها الصغير. انطوت على نفسها باكية تحت الأقدام، وتخطتها السيدات يكملن ما عهد به إليهن من مهام، باشراف الحاجة عفراء بنت مصبح وأختها عائشة اللتين امتهنتا هذه المهنة وتوارثتاها. حاولن أن يوقفن النزف ما استطعن، وأخذن يضمدن الجراح بقطن، ويسددن المنافذ، آملات أن يكون الوقت كفيلاً بدمل الجراح، فعلّ القبر يداويها، واكتفين بالتكبير والتهليل والصلاة على الرسول الأمين.

فجأة، تحول ضعف فاطمة لقوة، فاستعادت وعيها وأخذت تهيل الماء على جسد ميرة، تحاول أن تلملم ما تبعثر من فقدها ومن روحها المتشظية في المكان، مسحت بكفيها المرتعشتين الجسد المسجى، وقصت على نفسها فصول الحياة من دونها، متذكرة كل التفاصيل الجميلة معها. وبين دمعة غبن وابتسامة إشفاق، ارتمت فاطمة بين يدي السيدات.

«حبيبتي ميرة، ابتسامتك الساحرة ما تزال مرتسمة على شفاهك اللمياء، شعرك الأسود المنسدل كليل بهيم، يا حبيبة أمك، كيف لي أن أسرحه دون أن أؤلمك، وقد طال كالمدى، وهذه العشبة تسكن خصلك المبعثرة، من أين جاءت؟ وكثيب الرمل الغارق بين شعراتك؟ آه يا صغيرة، أواه يا أمي، كبرت لترحلي، قرارات رحيلك المفاجئة تباغتني كل حين، كم مره فعلت فعلتك هذه بي؟ وكم استجديت عودتك دون

مجيب؟ أي مآل هذا وأي قدر يحملك إلي عائدةً دون تفسير؟ يلقيك بين يدي دون صوت، دون حراك. كم كنت أحسد نفسي أني وُهِبتُ فتاة متفردة في كل شيء، حيويتك وصوتك الجميل، ذوقك وطبعك الراقي، حنانك والتزامك، عنادك وخوفك علينا... من سيسأل عني يا أمي بعد الآن؟ من سيشاطرني تيهي وخوفي وأوجاعي؟ من يربت على كتفي ويضمني؟ ومن يَحنُّ علي وقد شاب شعر رأسي؟ من يعيد إلي رشدي، وخيباتي كثر؟ من يعلمني أن أشكو بثي وحزني إلى الله، وأن أتيقن كما فعل يعقوب حين قال «أعلم من الله ما لا تعلمون».

3

عادت تهيل الماء عليها، تساعدها السيدات بملء قربة الماء وتمريرها. مسدت على جسدها المغطى من تحت اللحاف، قبلت يديها ومسحت بهما جسد ميرة. حاولت فك أحجية العشبة الصغيرة الساكنة في خصل الشعر الممتدة نحو الأرض، ثم ناحت على رأسها منكسرة.

الجدة موزة على كرسي في الزاوية، وقد حشرت نفسها في ركن كعادتها حين تجزع أو تخاف وتقل حيلتها. حولها مياسة ونورة تشاطرانها الوجع والخوف، مرتعشتان لا تحملهما أقدامهما، وميادة على الأرض جالسة، تنوح بلا صوت.

تزايد عدد السيدات وكثرت الأيدي الممتدة الى الجسد المسجى، فيما الحاجة عفراء وشقيقتها منهمكتان في الغسل وتجهيز الكفن والطيب. نُقل الجسد بخفة فوق اللفافة والحصير، فكفنته الحاجة عفراء وهي ترتل وتكبر وتسبح الله وتحمده كثيراً، وصوت البكاء يهزّ المكان، ويهزم عزيمة فاطمة كلما قوّت نفسها.

وضعت النساء عليها غطاء الرأس وطيبنها بدهن العود، وطلبن من الأقارب والصديقات أن يسلمن عليها ويستسمحن منها، فبدأن يتهاوين مقبلات رأسها وكتفها، ميادة، ثم مياسة، وفاطمة والأخريات...

خَفَتَ صوتُ البكاء وكأن العاصفة بدأت تهدأ، وكأنهن يلملمن أنفسهن، وبعضاً من ضياع، إلا نورة فقد تبعثرت أكثر، وما زالت تدور على الجثمان وتقبل رأس صديقة عمرها كلما سنحت لها الفرصة، وتهمس بخوف ورهبة وكثير من الشوق وكأنها لم تلتقيها منذ زمن. ويعلو صوتها، كيف أحتمل كل هذا؟ ميرة... قولي شيئاً عن البيت القديم، أي صدفة هذه التي تلقيك في فنائه وتحت لوزته؟

أي حبيبتي، حدثيني، ألست أنا مودع السّرِ والعلن؟ ألست أنا الصندوق الدفين، والبئر التي فيها الكثير الكثير»؟

حاولت السيدات إبعادها لنقل جثمان ميرة من الحوش وفنائه، إلى غرفة في المنزل القديم، تم تجهيزها لترقد فيها حتى صلاة الفجر. فقد قرروا عدم دفنها بالليل، واتاحة الفرصة لأكبر عدد من المصلين بالتواجد في المسجد، للصلاة عليها وتشييع الجثمان.

بصوت متهدج، رجت فاطمة السيدات أن يخففن من وطء أقدامهن على الأرض. «رويداً رويداً، فقد كانت تفيق من دبيب النمل. رويداً رويداً، لتخلد بنيتي بسلام».

وكذلك تمتمت الجدة التي لم تنحني ولم تودعها بعد، وكأنها ترفض فكرة الوداع، أو أن استسلامها قد بلغ أقصى مداه، لذا ربما لم تقبل جبينها، واكتفت بالتسبيح والتهليل والتكبير والدعاء، وبدموع تنهمر كسيل تواريه ولا يتوارى.

تقدم الليل وما زالت القريبات والصديقات والجارات يتدافعن لدخول البيت القديم، من باب خصص للسيدات. تتسارع خطواتهن،

وما أن يدلفن حتى يكدن يتوقفن من هول الإحساس ومرارة الشعور. فما أن انتشر خبر وفاتها، حتى التمت الصديقات مفجوعات، وتحلقن حول رأسها كتاج ورد منكسر الأعناق.

تداخلت الأصوات وسرعان ما سرى في المكان هدوء غريب، فالحاجة عفراء المغسلة آثرت أن تحول الأمسية عليها لجلسة وعظ وتذاكر، وبدت حديثها بـــ» كفى بالموت واعظاً،» وراحت تسرد الحكايا التي لطالما رددتها الجدات، عن الموت والفقد وعن الصبر والتحمل، وعن جزاء الصابرين والمحتسبين «وبشر الصابرين»، ثم ذكرت أنها فقدت أمها وأباها في سنة واحدة، حين أصاب البلاد داء الجدري، وكانا قد فقدا قبل وفاتهما بصرهما، فتيتمتا هي واختها صغيرتين، وعانتا كثيراً، إلى أن كفلتهما وربتهما خالتهما سلامة بنت عبيد، التي كانت تعمل قابلة تولد نساء حي الشرق.

في بيت الخالة، عاشتا في غرفة صغيرة تتقاسمان المأكل والمشرب والملبس مع بناتها السبع، فتعلمتا كل شيء عن استقبال الحياة، والتوليد، ومن ثم شاءت الأقدار أن تتعلما تكفين الموتى والغسل، فعاشتا المفارقة دون تعقيب، إذ تحتمل الحياة تجارب شتى، وفيها من البلاء ما يعجن الروح، ويدك الإرادة لتخلق من جديد.

فسرت لهن معنى الموت، وأخذت تنصحهن، فالفقد جميل حين يترك لنا من يبقينا من أجلهم.

وقفت ميادة وانضمت للصديقات والقريبات، وأخذت تسألهن الواحدة تلوى الأخرى، كالمعتوهة. «قولي يا آمنة، هل كانت في

المكتب عند الثالثة بعد الظهر؟ هل بدا لك أنها متعبة؟ هل أوصت شيئاً؟». لاذت آمنة بالصمت، واجمة فزعة، وأجابت بالبكاء المخنوق في حلقها، فخرجت الكلمات متقطعة لا تُفَسّرُ ولا تغني من جوع.

تابعت، «ليلى، أنت من شاركتها الطريق في الذهاب والعودة من الجامعة كل يوم، ومنذ أن التحقت بكن أخيراً. حدثتني بالأمس مطولاً عن الطرقات التي تخترعينها لكي تصلا البيت لتعود الى عبد الرحمن الصغير، روحها التي ما انعتقت ولا انفصلت عنه، رغم انقطاع حبلهما السري. لطالما قالت «أحسه هنا، ينبض داخلي وكأنه ما انفصل يوم ولادته، بل عُلِقَ أكثر». قالت إنك بارعة وإنها محظية بأن تكون لها رفيقة درب ماهرة مثلك، ليس في الطرقات فقط، وإنما في الإصغاء لمنهك كثير الكلام وبالتفاصيل أيضاً... هل عادت معك؟ عما تحدثتما؟ وأي طريق مختصرة سلكت؟

ردت ليلى التي ساورها الخوف مترددة، «اتصلت بي وقالت ستعود متأخرة ولديها بعض الالتزامات مع الطلبة، وقد حددت لهم مواعيد إضافية للساعات المكتبية، وستقضي بعض الوقت لإنجاز مهامها، وتعود مع د. عبد العزيز في المساء. اعتذرت مني كثيراً على غير عادتها، ثم صمتت وأردفت قائلةً: «سأفتقدك كثيراً، فللطريق معك طعم آخر! نلتقي بود عند السابعة، ولا أظنك تتأخرين علي أبداً «.

بكت ليلى بحرقة مرتمية في حضن ميادة، تسألها بدورها عن د. عبد العزيز وهل لديه خبر يشفي حرقة قلوبنا؟

دكتور عبد العزيز؟ كيف لم يخطر ببالي «عزيزها»! من هول

ما حصل، نسيت أني نسيته، وهو بيتها وظلها والجدار الذي طالما استندت إليه، حتماً تداعى مثلنا كله عليه، بل أكثر، فعبد العزيز المتجهم على الدوام والصامت بحكمة، لا نرى ما يخفي من قبح ولا جمال ولا نسمع منه إلا أشباه الكلام، أبعد من التصور بكثير، دائماً في انشغال مدروس ومحكم حتى يخيل إلينا ألا عتب يرجى في عذره.

يفاجئنا بالحضور، ولم ننتظره يوماً على مائدة أو مناسبة، ولم يشاركنا أفراحنا ولا حتى اتراحنا، وكل ما نعرفه عنه، ما سمعناه منها، فكثيراً ما تبرر غيابه وتصوغ أفعاله بتماه منقطع النظير مع ما تشتهي من حلم، حتى يكاد يخيل لنا أنها لاقت في عزيز الفارس المغوار، الذي قاد قطيع أنوثتها نحو سدرة المنتهى وجنة الخلد، وأنه غاية المُنى.

لا ندري كيف يمكن أن يُغدق عبد العزيز عليها لهذا الحد لطفاً وحباً، ويكاد حضوره ومكوثه في البيت أن يستمر لساعات قد يقضيها نائماً أو متوسداً كتاباً، وهي تدور كنملة مثقلة بعيشها وطابور يتبعها، ترسم مع البنات لوحات على جدار خصص لحب الحياة. كلما دخلنا عليها وجدناها تصلح جناح طائر، أوتبني عشاً وتشذب شجر الجدار... ومحمد ومهند يعيثان في عشّها فساداً، فتجاري شقاوتهما فاتحة لهما فضاءً أخضر مستلاً من روحها، معرشة أفناؤه بدءًا من قلبها، وليس انتهاءً ببيت جارتها أم صالح.

قلت لأمي ذات مساء، ونحن مجتمعون في بيتها، مفضفضة هذا الغيظ على عبد العزيز المتكل عليها في كل شيء، فما أجابت غيظي كعادتها، ويبدو لي أنها من كثرة ما عانت مع والدي، صارت كل الحيوات بالنسبة لها أجمل مما عاشته في كنف الفراغ الذي تستند إلى جدرانه

روحها. فما جدوى الحياة دون شريك يلامس القلب والوجد، ويحوك التفاصيل لثوب فرح القادم من الأيام، يمسد شعيرات الليل النافرة عشقاً، ويداعب مبسم الطفل الذي ما فطم من حبه بعد كل تلك السنين؟

حبيبتي ميرة، أذكر أنها كانت تحكي قصصاً وتفاصيل حب كالحلم، وكأنها تحوك وتطرز ورداتها الصوفية الملونة على شالات الشتاء التي اعتادت أن تهدينا إياها قبل موسم البرد بكثير، وأنا ومياسه وأمي وأم صالح ونورة كعادتنا، نراقب لغة جسدها، عينها التي لا تستقر وتتمرجح كعروس العيد، وشفتيها الملتصقتين حتى نكاد لا نسمع الحديث، وتوتر ساقيها وقدميها المنتفضة، منذ أن تبدأ شفتاها في الانبلاج قليلاً وتتلألأ نواجذها.

كان حديثاً مرسوماً مذ عرفت عبد العزيز، فصول الحب المشتهى، والهدايا التي تشتريها وتهديها نفسها، والعطور والحرائر وحتى حلوى العيد، وهدايا الأطفال ونذور سلامتها بعد كل ولادة.

ما أجمل أن تهب الصور لوناً يشبه التمني، وما أروعك يا ميرة، كم تمنيت يا أختي في كل مره أن تكوني قد نهضت من حلمك وعبد العزيز، وتشاركينا حقيقة ألمك وحقيقة غيابه، وصدق ما تشعرين، ولكنك تصرّين أن ما يمنحك إياه من حيوات تغنيك حتى عن الحلم بالمزيد، وأنك معه أميرة في كل لحظة، وأنه الرجل الذي طالما تمنيت حقيقة. لا أدري لماذا لا نصدق يا حبيبتي أن السعادة نسبية، وأن ما يمكن أن يشبعك ويفيض عليك، قد يكون بالنسبة لنا جوعاً وعطشاً وفقراً، وأن ما تمنحيننا إياه من حيوات وورد ودفء في كل المواسم، هو ما تحتاجين

فعلاً. لم تترك الأمثال شيئاً إلا وطالته ، فلطالما سمعنا عن باب النجار المخلوع.

لا أدري لِمَ كنا نُصرُّ على أن ما يدور في بيتك، وما تقصّين علينا دون سؤال، وما تمطريننا به من تفاصيل دون استسقاء، كان مجرد رغبة طافحة من معترك يومك، وأنك تعانين أمراً نجهله، خاصة في لحظة انشغالك بتجهيز فناجين القهوة أو إعدادها، كنا نلوك الموضوع نفسه، فقد يئسنا من مثاليتك المفرطة في كل شيء، حتى في علاقتك معنا ومع المحيط وطالباتك وأهل عبد العزيز، والسائقة ليلى التي تقلك من وإلى العمل، ولا ينتهي عملها عند هذا الحد، بل تشاركك موائد الطعام وقصص الأطفال.

كنا نرى في ليلى مزلقاً جديداً قد تقعين فيه إثر ارتباطك بها غير المبرر وبهذه الصورة، ولطالما نوهت لك بذلك أم صالح. فتجربتها في الاغتراب وهجرتها من فلسطين، ثم إقامتها في لبنان، فمصر، فالإمارات ، وكانت أم صالح، كلما انفردت بك قالت: «وليلى لماذا تسكن عندكم؟ ولماذا لا تستأجرين لها سكناً خارجياً؟ ولم هي منشغلة لهذا الحد في تفاصيل البيت التي لا تعنيها؟ لو أنها تنشغل بالطريق؟ بغربتها، بتفاصيل حياتها المشوبة بالغموض، إصرارها على أن تنأى بنفسها في عمق الغربة، لتجد منفذاً وملاذاً يشبه التيه الذي تصبو لفتح مجاهله بينكم، لكان أفضل لها ولعيشها».

كانت أم صالح حذرة جداً وقلقة من كل شيء، يبدو أن تجربتها صقلتها لحد التوجس من الهواء العابر، فكانت لا تثق بسرعة وتحتاج لإجراء اختباراتها بشكل دوري، على علاقاتها بالبشر. كنا نرى ذلك

مرضاً، بيد أنك كنت ترين أن لها عذرها. وكعادتك المثالية، كنا مخطئين أنا وأمي ونورة، وأنت دائماً على صواب لأنك أحسنت الظن ووجدت المبرر الكافي لها ولسواها. حتى أن أم صالح كانت تجد في فسحة بيتك، فسحة لروحها، فتتحدث دون حدود، وتنتشي للطرب، وتنسى أحزانها، ومفتاح بيتها المعلق منذ عقود من الزمن، في حزام معقود على خاصرتها.

آه يا ميرة، كلنا منشغلات! أي نعم، فأنت وحدك تعرفين كيف يسرقنا الوقت في التربية ومراعاة الصغار، ووحدك تعرفين كيف تكون الحياة مع رجل يستوطن قلبك قبل بيتك، وتعرفين أن منصور لا يفارقنا البتة، حتى أني بت أحسد نفسي على التزامه بنا، وأحياناً أجدني مضطرة لتبرير خروجي لسويعات للقائنا الخميس. حين سميت ابنك منصور على اسم زوجي، لم أستغرب، ولكنك بررت قائلة: ميادة، منصور، أسميته «منصور» على «منصورك»، فكم كنت أراه نصيراً للحب، ونصيراً للحياة وللمرأة، وللعشب والورد والجمال، ولكل ما يمر بين يديه فينعشه ويحييه وينصره، وكم تمنيت أن أكون منصورة به في الدنيا وفي الآخرة، وحسبي أنه يشبه طبعك وصورتك وينصر ما بي من حياة لأجلنا.

إلى أين أذهب هذا الخميس، من سيسمعني وأنا أغني، ومن سيشاطرني حديث الحب، والغراميات، والنزاريات، ويدندن معي لعبد الحليم وميادة الحناوي وأم كلثوم؟ كم أكون سعيدة وأنا أرافقك حتى على سلالم البيت، فنعدو كالفراشات، منطربات لمجرد أننا معاً، تشاطرنا الصغيرات الغناء والضحك.

إلى أين يا ميرة .

4

الوقت يمضي على حد سيف. وعلى صراط مستقيم، تمضي أحاديث أرواحهم المبثوثة على ما هو أحدّ من السيف وأرقّ من الشعرة. كثير من الألم تساقط في جهنم الوجع، والليل قارب الانتصاف. صحا عبد الرحمن الصغير مباغتاً كل الأحاديث، يبحث عن أمه حبواً، ولا أحد يستطيع تفسير الموت لرضيع لا يفهم إلا إلحاح رغبته في الاحتضان، عدا الجدة موزة التي عايشت ميرة وألفت طبعها، وقد تكون هي من شكلت مفارقات رقتها وقوتها.

هي وحدها قادرة على تهدئة الصغير. أخذته وشدته إليها، وكأنما عقدت وثاقه بالقلب من جديد، وبصوت متناهي الرقة، قرأت له سورة «الرحمن...علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان»... خفت صوت بكائه، وتعالى نحيب أم صالح تدعو الجدة موزة أن تدنيه منها، حتى أخذته والتصقت به، حتى كدنا نظنها من شدة السكون ماتت واقفة بغصتها، فقضية الأرض التي سلبت منها، والمفتاح الدائر في خصرها منذ عقود، وجع تعرف وحدها سبيل اخماد براكينه بسكينة المترقب بهدوء، علَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً... وبلهجتها المختلطة الهجينة،

إثر سني الارتحال والاغتراب، ناحت على الجسد المسجى، ذاكرة وبعالي الصوت ما فعلته معها ميرة منذ أن سكنت بجانبها وجاورتها.

وجهك يا ميرة، شمس الصباح التي تزورنا، وما تنسى فصول الإشراق، كيف لا أبيكك وأنوح على صدرك، وقد آويت عائلتي، وسددت حاجتي، وألبستني شالاً أخضر مزهراً بياسمين حديقتك المرتوية من روحك العطرة؟ كيف لا أنـوح، ومطعمنا وملبسنا وغذاؤنا من فيض جودك، ولم تبخلي علي باذنك، وقلبك، وقد أصغيتِ لأوجاعي وأحزاني وحنيني لأرض، وبكائي على الزوج والولد. كنت أشفق عليك أحياناً من هول ما أصبه عليك من حرقتي وحرماني واحتياجي، ورغم صغر سنك، إلا أنك كنت حاضناً أميناً، وأرضاً ووطناً وكنت صديقة القلب، والعين. عوضتني كلماتك عن أبي نضال وعن الزيتونة والدار، وأعانتني على الصبر. فكم كُنتُ محظية أنا بجارة تحمل معي بقجة الحزن التي كثرت ثقوبها وتداعت حمولتها على أكتاف عمري. وحيدة عدتُ أنا اليوم، مفجوعة برحيل الأرض، والزوج والصديقة، وأطنان حمولتي حولتني لكتلة تترامى في صحراء قاحلة معدومة الملامح، وكأني بعير تاه عنه حاديه، فتوحد مع الرمل وصار فناء مسكوناً بكثبان الريح.

ميرة.. نتمشى، وأعلم أنك لا تحتاجين مثلي في كلِّ الوقت فسحة من فضاء تتنسمين به الحياة، ولا تملكين الوقت لذلك، ولكنك كنت تفعلين من أجل ركبتيَّ، ومن أجل أن تخففي عني أوجاعي. كم كنت

فخورة بقربك، بحنانك عليَّ وعلى الأولاد، لم أشعر يوماً بأنني غريبة أو مجرد مقيمة على أرضكم، كنتِ وحقّ الله أقول، الوطن الذي سُلب مني بغتةً، وأرضك كانت ملاذي وكأنها خيرة، وأن الله من عليَّ بأهل وأصحاب وبشر ملائكيين يرفرفون بأجنحة أرواحهم على أوجاعنا، فتهدأ أنفسنا ويسكن روعنا.

أبنائي ونفسياتهم وحتى شهادات مدارسهم وحفلاتها. كنت شريكتي في الفرح، فكيف لا أبكيك؟ ومنذ عرفتك وحلمي الأزلي الذي ما فتئ يراودني بصوت القاصفات والصواريخ الناسفات، وقدم زوجي التي مزقت قرابة الدار بجرافة الاحتلال ونزفت حتى فارقتنا روحه ويده ملتحمة بالجدار، وابني نضال الذي قُيّدَ في سجون الطغاة، وشتلات الدار التي بعثرت رياحينها أعاصير جرمهم... كيف لا أبكيك وقد تناسيت معك كل همي وجل قهري وتجاسرت على ألمي بعطفك...

دعوني أبكي، وأنوح، دعوني أخبركم عن جلسات الذكر التي سجلتني فيها مؤخراً، وأنها دعتني ذات صبح ماطر لفنجان قهوة مرّة كما تفضل هي، وتحليها بحلقوم من اسطنبول كما يشتهي عزيزها بنكهة الزنجبيل، وكنت أستمتع بهذه التفاصيل الصغيرة التي تلامس القلب، لأنها لا تترك شيئاً دون تفسير يعلقك بالأشياء، وكأنها تفتح كتاباً لسير الأمور وفق مشتهاها... دعتني لفنجان القهوة المرّ، وراحة الحلقوم بالنكهات الطيبة الإسطنبولية، وحدثتني مطولاً عن أهمية الحفظ في

حياتنا وأن الإنسان كي يتذكر جيداً، لا بد أن يحفظ جيداً، وأنه لا بد من البدء بالقرآن، وهو خير رفيق ومعين للحفظ، والتذكر، والتدبر، وأن والدتها فاطمة كانت تصرُّ على أن تسجلهن في دورات تحفيظ القرآن كل نهاية فصل دراسي، حتى ختمن أجزاء منه، وقد أكملت حفظه في الجامعة وأعانها على ذلك فقدها لجدها الحاج عبد الله القاضي.

حفظت يا ميرة.. حفظت يا كبيرة.. جزء عمَّ، والآن باشرنا حفظ قد سَمِعَ، وأنت ترقدين بسلام وذاكرتي تدك معاقلها بالتفاصيل العظام، آواه يا ميرة، أواه يا أميرة .

5

تجاذبت فاطمة ونورة أطراف حديث وقد بدا وكأنهما باشرتا فك خيوط الأحجية، في المطبخ حيث التقتا وأخذتا تشرفان على تجهيز الشاي والقهوة والزهورات الشامية التي تفضلها نساء الحي القديم، وخاصة الكبيرات منهن. فأم صالح والأخريات يعرفن كيف يسوّقن منتجات الشام جيداً، إذ لا بد لكل جلسة أن يوازيها على الهامش تسويق لمنتجات الشام التي أدمنّها (صعتر، زهورات، مكدوس، زيت زيتون...).

منهمكتان في الحديث، تحاولان استعادة الحكاية بصوت متعقل وهادئ من بدايتها، وتتتبعان خط سيرها طيلة الأسبوع الفائت وما قبله قليلاً. وللأسف، كلما توصلتا لموطن، جاءتهما تفاصيل لا تشبه روايتها. فيوم السبت الفائت، كانت ميرة مرتبطة بحفل خيري في جمعية الهلال الأخضر، من السابعة وحتى التاسعة مساءً. وفي الوقت نفسه من مساء السبت، كانت مع أمها في السوق تجهز لليلة النصف من شعبان، ومعها محبة ومنتهى، ككل سنة، وكأنه طقس لا بد من تأديته مع الأم. كيف قضت يومها في المكانين، وكيف وازنت بين عملها

الخيري، ووظيفتها كأم وابنة بارة في الوقت نفسه؟ قالت فاطمة مشيحة بوجهها نحو نورة، لا تعجبي، فكل وقت كان يمر معها، ظننت أن ألف امرأة تسكن روحها، وأنها خلقت لتكون قبيلة نساء واهبات للحياة. تخيلي أنها لا تنسى ولا تجافي ولا تغتاب، وأنها تعيد الجميل من معانيها وأفعالها للتأسي به، وتنسى القبيح من أجل أن تمضي الحياة. كم تمنيت لو أني أتعلم منها شيئاً، فأنسى أحمد أو أتناساه، وأذكر لحظة استيطانه بي ولا شيء سواه...

وبينما هي منشغلة في رصِّ التفاصيل مع نورة، ومحاولة الربط في ما بينها، وقد اختلطت كل الأمور عليهما وكأن شباكاً عنكبوتيةً لا تكاد ترى، تبحث عن فكاك مستحيل، امتدت من خلفها يدُ أحمد وهو يحاول احتضانها، ففزعت بصوت مختنق، دافعة بيديها صدره الملتصق بظهرها بعيداً.

رائحتك سبقتك يا سالبي كل الظنون، أينك، تأخرت؟ أين أنت من وجع ما ترك فيّ حيلاً لاحتضان ولا مباغتة؟

قَبّلَ رأسها، وسحب يدها متخذاً مسرباً آخر لحديث يخصهما وحدهما دون نورة. صمت كثيراً، ثم أطلق لشاربيه العنان ولشفتيه المكتنزتين فرصة التبرير كعادته، ولكن هذه المرة، هو مختلف ومرتاع. جثا على ركبتيه، محتضناً ساقيها، ودسَّ رأسه المعصوب بشال مطرز أخضر عشبي كانت قد حاكته ميرة ذات عشق أبدي، لوالد اشتهت أن تبقى يدها طيلة العمر ملتصقة بكفه الكبيرة، في مشاوير الصباح إلى

المدرسة والعودة منها، مروراً ببقالة «البحار»، وانتصاباً أمام ثلاجة الإيسكريم، حيث تبقى يدها في يده، وتنتقي اليدان ما تريده النفس، دون أن تقول اللون والطعم. كانت نظراتهما الباحثة عن جمال كل شيء هي الدليل.

بكى بحرقة، وذرف الدموع السائلة كنهر، فك شاله ليمسح الدموع التي أغرقت شاربيه ولحيته، ثم انهار على صدرها لا يعرف أين يمضي بفيض لوعته.

فطيم، ما لا تعرفينه أنها كانت معي منذ سويعات، مرت علي في العزبة، حيث اشتريت 4 نعامات وظليماً، ودعوتها كعادتي كلما جئت بحيوات لعزلتي، لتشاركني تسميتها، وولوج الحياة إليّ من حيث لا أدري ولا أحتسب من جديد. فبعدك لا حياة تذكر، ورغم أنه خياري ولا أنكر، ولكنك لن تتفهمي أبداً رجلاً عاشقاً لخيالات تتعدى الفهم، شاعراً وتواقاً وشفيفاً، باحثاً في أبسط حالاتي عن خلاص، عن انعتاق من قيد حبك. فقبيلة الذكور التي تسكنني تحتاج لقبيلة تتفهم أن الأرض والسماء لا تكفياننا، وأنّا نشتهي العروج لثامن سماء حيث تقطن أرواح تشبه الأماني فينا!

هي وحدها بذرتي التي رَبيت في أرضكِ وأنبتت في قلبي من كل زوج بهيج، كانت تستطيع! لأنها قبيلة مثلي، تشبه التمني في خَلقي، والانبعاث في سماواتي، أحالت كل شيء هناك لضحكات وألوان. حتى النوق والأحصنة والمعز، شَهِدت معها الولادات وسمينا

الصغار، وشهدنا تزاوجها، وكانت كلما سنحت لها الفرصة، جاءتني دون موعد، لتجدني أطعم الصغار وأرضع الجياع منها والعاجزات، وكنا نتسامر في غياب عبد العزيز ونتقاسم الحياة. ميرة التي أبكي يا فطيم، لم تكن ابنتي وحسب، كانت ولادتي لهذه الحياة، وولّادَتي لكل الحيوات التي ما فهمتِها أنت..

تأخرتُ لأني تبعت الطريق الذي مرت به، ذهاباً وإياباً، وأظنها تاهت بنيتي، ولا أظن أن تحيد أبداً. لا أدري ماذا حدث، كل ما أذكره أنها تركتني أصلي وقد أطعمنا البهائم، وقالت إنها ستعود غداً. وعدتني بأن تعود، أذكر أنه قد جاءها اتصال وقالت إنه عبد العزيز، فقلت أي عبد العزيز؟ وضحكنا، ثم ذهبت تاركة كعادتها شيئاً أذكرها به حتى نلتقي، ونتحدث عني وعنها وعنا! وهذه المرة تركت لي صورة تجمعني بها والغزان وصغارها الخشاش، في أبوظبي، وقت المغيب، في ذات اليوم هذا، 22 من سبتمبر/ أيلول، فكيف أبلغوكم عن وفاتها، وكيف وجدتموها وأين؟ ماذا حل بها؟

اعتدل في جلسته ولف عصبته مجدداً، ومسح بيده على وجهه، ثم وجهها، وضم رأسها إليه.

أظنها أرادت أن تقول لي أمراً، لم تكن إلا هي، البشوشة الجميلة الهائمة في المكان، ولم أكن إلا أنا وحدي، وقد انعزلت عن الجميع، إلا الأرض والسماء والعشب الأخضر والزرع والزيتون والرمان وجدول الماء وصوت البهائم وجميل عشرتها. كانت كعادتها مبتسمة،

تحاول أن تخفي أمراً، تظنني سأسألها ولا أفعل، فتدس رأسها في عنقي وتخبرني ببوح شفيف يليق برقتها. انتظرت أن تفعل، لكن عزيز هذه المرة حال دون أن أعرف سرها تلك الليلة... أين عبد العزيز ؟ لم أجده بينهم ، وسألت ولم أجد إجابة لدى أحد منهم؟ اتصلت به ولم يجب، وسألت عبد الرحمن، ابن عمتها، عنه وقال: لم يصله الخبر بعد، فهو مشارك بورقة عمل في مؤتمر بفلورنسا، ولا ندري كيف سيصب هذا الخبر حممه على روح عبد العزيز المشغول عنهم به.

6

ما أبشع الصور التي لا تفسر، وما أقسى الظروف الحائلة دون سؤال وجواب بين الأحبة. لقد تعقدت حياتنا كثيراً، لهثنا خلف المادة والصورة وتموقعنا حيث مرايا الآخر تُعبِّر عنا. أنت لم تكتفي بحديث صويحباتك، وانطلقت لفضائك الذي عبثت فيه طيلة انشغالي بك. حديثنا لم يك يتعدى اللحظة التي تلتفتين فيها إليّ، مفارقةً شاشة جوالك الذي خزّنت فيه ما لا يحصى من أرقام الأصدقاء والأعداء والمتابعين عبر محطات التواصل الاجتماعي. يوماً بعد يوم، فتّقتِ نسيج علاقتنا وتناثرت خيوط الحياة التي ما فتئت ألملمها وتنزعين، أرخيها وتشدين، مدّعية غيرتي الزائدة عن حدّها، وأني أتدخل في خصوصياتك وحياتك وفضاءاتك. هل كان الفضاء الذي تمشهدت فيه أصدق تعبيراً، كما تزعمين؟ هل وجدت الأصدقاء الحق الذين عوضوا غيابي؟ هل انتشيت بأوقاتك السابحة في الافتراض، والغارقة في وهم الاحتواء؟

كنتُ أنا الحقيقة التي ما رأتها عيناك، وزاغت عنها في مرآة الغير البراقة التي صوّرت لك الحياة دون اكراهات حقيقية ودون مفارقات.

ليتك يا فطيم استمعت للحديث الذي ظننتِ أني كنت اتفلسف به عليك، وليتك وعيت الصوت الذي كان يخترق دواخلي ويحرق ما بقي فيّ من صبر على تمرد ذاتك.

هكذا عدونا في اتجاهين متعاكسين، نحنّ لصوت يئن في دواخلنا، وننأى بأرواحنا بعيداً، حيث يجد كل منا بغيته، دون منازعات، ودون تلك الأصوات العالية التي ما كانت تهدأ لولا تدخل ميرة، صغيرتنا التي كانت الحكم والعدل الذي لم يرضكِ يوماً، ولم يكّ فصلها في أمرنا إلا خلافاً متأججاً بينكما جعلها تتخذ مسرباً تحلّق فيه بعيداً عن عتمة غيوم الصيف التي ننسجها تباعاً ولا نستظل بها ولا هي تهاطل علينا إلا الغبن.

هل كانت تخبرك أنها تزورني؟ هل أخبرتك أنها إليّ تعود، تشتمّ فيّ الصبر وتستمع معي لصفير الريح وهدوئها، وصوت الحيوات العابثة في صحراء التمني مثلنا، تخبئ في جيوبها، كما كانت تفعل وأخواتها الصغيرات، رملاً وعشبات صغيرة، وتعود لترسم على صفحات الورق شيئاً من تفاصيل لم تأتِ بها الطبيعة وجادت بها مخيلتها...

أذكر أنها أهدتني في يوم العيد لوحة أرضيّتها وسماؤها من رمل «العزبة»، وبقايا روث غنم جففته وأعادت تطييبه، وبقايا بقش كنا نجمع فيها طعام البهائم، وقطع حبال، وسعف وجريد، وصورت حياة البادية جِمَالاً تسير على رمل أحمر، وشمساً تتأهّب للرحيل، وجبالاً شماً.

وقت كانت تهديني لوحاتها، كنت أهديها فرصة أن تسمي مولوداً جديداً، وقد أبدعت في كل المسمّيات ولم يبق في الصفات اسم لم يطلق على بهيمة عندنا .

لا أدري كيف سأحتمل الحياة من بعدها؟ وكيف سيرسم الزمن ملامحي القادمة دون أن تعيد هي تشكيلي وتلم حزني في بقشة ترميها بعيداً لننبشها ذات صفوة، ونعيد ترتيبنا بتؤدة وتأنٍ، كما كنا نفعل وقت المغيب وعلى صوت صفير الريح الحاملة معها أرواح البررة. كانت تقصُّ عليَّ بعضاً مما ألفته أذناها في بيت أبي الحاج عبد الله القاضي، المسافر على أجنحة الأخيلة، الحالم كل وقته في قصص وتخيلات لا تنتهي، حتى حسبت وأنا صغير أن أبي تعتريه حالة شطح لا تنتهي به إلا لشطح أكبر. فالقصص التي كان يرويها لي كانت في مستوى لا أستوعبه ولا يهضمه خيال، وأنا الظانُّ بنفسي مبدعاً وشاعراً ألقاً .

7

اتكأت الجدة موزة على مسندها، متخذةً زاوية قصيّةً كعادتها، وسط أصوات الصديقات والجارات والحاجة عفراء بنت مصبح وأختها عائشة، التي علت بالتسبيح وتخفت بالتهليل وتلاوة القرآن. الكل منشغل ومستغرق في سرد تفاصيل علاقته بميرة، من غير أن يُعرف من هو الصادق في سرد وتأويل تفاصيل تتفاوت بين السرية والعلن.

هل أقول لك شيئاً لو عرفته قد تزدرين حزنك وترينه وضيعاً أمام ما تئن به روحي عليها فتحمدي الله كثيراً كما أفعل؟ كانت يا صفية، تدس في جيوبها، كلما أعطاها جدها المصروف للمدرسة، مبلغاً تدخره لي. وكلما سألتها لم تدخرين وهو مغدق عليك بالعطايا والنقود، تجيب «سآخذك في رحلة لن تنسيها طيلة عمرك». وكبرت وهي تدخر، وفي كل مرة كنت أحسب النقود أجدها تتضاعف. ولم يكفها المبلغ الذي توفره من المصروف المدرسي، إذ ضمت إليه عطايا العيد وما جمعته من عطايا النصف من شعبان. وفي ليلة زارتها الحمى وأرقدتها، وكانت في الثالثة عشرة من عمرها، فقالت لي لا تبرحي مكانك يا أمي، ابقي هنا، أحس أني أموت من البرد ومن الحر في الوقت نفسه.

قرأت عليها الفاتحة مائة مرة. قويت عليها الحمى، فقامت وجلبت صرة النقود وقالت: «يبدو لي أني لن أتمكن من الوفاء بوعدي، وأني ذاهبة لألاقي ربي الليلة فسامحيني». ضحكت من قولها كثيراً واحتضنتها، ولا غرابة فهي جميلة حتى في خوفها، تعيد قصص الحاج وبالطريقة نفسها، وتحب المسرح وتعيد مشهدة الكثير من الخرافات التي كان يحكيها.

تهلل وجه صفيّه واعتدلت في جلستها وتوقفت عن بكائها، مصغية بإمعان، والجدة مسترسلة في حديث روعها المنسجم مع طبيعتها الهادئة والمتكئة على نفس راضية.

قالت، ضحكنا ويبدو أن الحمى استحت من فرحنا فتراجعت وهدأت ميرة من نوبات ارتعاشها. انتهزت الفرصة معربة عن رغبتي في معرفة الوجهة التي تنوي، وقلت لها بنيتي أخبريني إلى أين نذهب بالنقود فهي كثيرة ويبدو أن المشوار طويل أيضاً، قالت لبيت الله الحرام، سنطوف سبعاً ونسعى سبعاً ونشتم الحجر الأسود ونصلي عند مقام إبراهيم ونشرب من زمزم، فقلت لها وما أدراك بأني أنوي أداء العمرة، فأجابت لأني حلمت أني أطوف البيت وطرف عباءتي موثوق بشالك الأسود، ذاك المطرز بالعشبات الخضر ذات السيقان الطويلة الممتدة على عرض الشال الذي، كلما طلبت منك أن تعيريني إياه للصلاة، فتشت عن غيره وكأنه لا يليق إلا بناسكة مثلك.

أتعرفين يا صفية ما يعني أن تتطابق نوايانا وأحلام من نحب؟

إنها قمة التواصل والتلاحم، وهو ما يسمى بالوفاق الروحي. هكذا كنا متلازمتين، أعلمها الحب وأنوي الطاعة، وهي تحلم بالطاعة مكللة بالحب. وهذا الطريق مهما طال ما هو الا اختبار، فلا تكفري، ولا تيأسي من رحمة الله، واصبري عسى الله يربط على قلوبنا.

آمين، أجابت صفية ماسحةً بكفيها الصغيرتين على وجه الجدة موزة الذي امتلأ بالدموع، ومحتضنة ساقييها الملتفتين. لم تبرح مكانها لتعاود طرح السؤال: ماذا حصل يا جدتي، كيف ماتت صديقتي ومعلمتي؟ كانت قد رافقتني إلى المكتبة واختارت لي سلسلة جديدة من الروايات العالمية المترجمة، ونصحتني بمقارنتها مع أخريات، وحثتني على المشاركة في إحدى الجوائز الأدبية المهمة، حيث تترجم الكتب الفائزة لعدة لغات حية. سألتها إن كانت ستعود إلى مكتبها، فقالت أجل، سأعود حتماً، فهنالك أمور كثيرة لا بد من انجازها. ثم وعدتني أن نلتقي مجدداً في المكتبة، صباح الغد.

8

كانت نورة قد أنجزت كل الواجبات التي عليها بعد أن جهزت مع العاملات وفاطمة، القهوة والشاي والزهورات وأمور الضيافة، للعاكفين على جثمان ميرة، فانطوت كشرنقةٍ مسلوبة اللون وبريق الحياة، متيبسة، تنهمر دموعها وكأنها تطالع مشاهد مأسوية لا تنتهي. رن هاتفها، ففاجأها اتصال عبد الرحمن زوجها، يطلب منها الخروج وملاقاته عند الباب الخلفي للبيت القديم.

باغتها بطلبه الذي جاء من غير تمهيد، ومن دون أن ينظر إلى وجهها كعادته. كان عبد الرحمن قاسي المراس والطبع، تنقصه اللباقة مع زوجة أفنت عمرها معه وهي تداوي أعطاب حبه القديم، تتجنب الخوض في أي حديث قد ينكأ جراح الماضي، وتلتمس له الأعذار لأن الحب الأول لا يغفر ولا ينسى. لكنه كان يمارس غطرسته عليها، وكأن ذنبها أنها قبلت أن تكون صديقة لميرة، وزوجةً لعاشق لا يكل ولا يمل ولا يتوب عنها.

«أخبريني صدقاً، ماذا يجري في الداخل؟ هل قالت إحداهن شيئاً؟ اجلبي لي هاتف ميرة...». طلب مني أن أحضر هاتفها لمعرفة

ما حصل معها في الساعات الأخيرة، خاصة وأنهم وجدوها في مكان مفتوح، في الصحراء، وبعيداً عن عزبة أحمد أبيها، وقد فارقت الحياة وجراحها كثيرة. « اذهبي وأحضري الحقيبة التي أعطوك إياها»، صرخ بها.

وجمت، لم تُجب. ما الذي قد يخطر ببال امرأة عانت في ظلك يا عبد الرحمن، وآنست الوحشة في الليالي حيث كنت ترقد بجانبها، وفكرك مع أعز صديقاتها؟ وحين تغفل وتنام، تفضحك أحلامك فتهذي باسمها. سنوات وهي تعاني من يقظتك وأحلامك، حتى فارقت فراشك. فللروح طاقة وللنفس قدرات على الاحتمال.

قرأت في مدونته مالم يكتبه شاعر في عشقه وغرامياته، قمة الإحساس، متيم بها، يدري أنها لا تميل ولا تلين ولا تنقاد، ويبدو أن ما يجعله يلهث خلفها، أنها دائماً تصد وترد بجفاف على تجاوزاته.

قرأت ما أفزعني وروعني، وملأ أجفاني حلكة، وحياتي سهراً وخوفاً، قرأت عن مغامراته، وجنونه، وفصول عذاباته، وأنه في بعض نوباته غير السوية يرى أن من حقه كعاشق أن يسلب روحها التي هو مفتون بها، جزاء الحب الذي تنزفه أيامه. وكم استباح من حرمات في خيالاته، وكم صلبني على مقاصل جرمه دون ذنب مقترف.

قرأت أنه لا يحبني، وأنني أواسيه في بعض أوقاته، ويحتاجني لتقويم حياته وتنظيم شكل انتسابه الى العائلة وانضمامه إليها والتقائه بها.

أيعقل أن كل إشاراتي وعلاماتي وصلواتي وابتهالاتي ودعائي وسعيي خلف رضاه وتلبية حاجاته، كانت مجرد واجب زوجة لا أكثر؟ كان يمكن لخادمة أن تقوم بما أفعل لولا أني كنت أشاركه الفراش وأنا ألوك في كل مرة غصتي وأحمد الله أني بعد وقت، أحبل بطفله، فيهجرني وكذلك أفعل بدواعي التعب... أحبه، ويحبني، وهذا ما يرى، وما بداخله، وما يشغله، وما يعترك بداخله، مفارقة أخرى لا يعلمها إلا الله وقلبي الذي يكوى في كل لحظة يقين أنه يتجمل من أجل ألا يكسر قلبي.

كنت أتضور جوعاً كمنفي ومسجون أو مشرد، أشتهيه كان لا يتجاوز شيئاً من رائحة عرقه وهو بين يدي متجهم، عابس، يؤدي أحد واجباته، فهذا المشهد بالنسبة لي أجمل مشاهد العمر الجميل بيننا، وهذه طبيعته حين ينسجم في أمر يريد أن ينجزه بإتقان. نعم أظمأ لرؤيته، نعم أحبه وأحببت عذابي معه، ويبدو أني رضخت للقدر وأن قلبه المشغول لم يعد يعنيني منذ زمن. وها قد مات اليوم حب قلبه، وأظن بعض القلوب تولد من جديد في ظروف متجددة ومختلفة بعد الموت، وتكون أجمل وأكثر قدرة على العطاء، وهذا ما أريد...

9

عادت نورة إلى الغرفة حيث وضعت أغراض ميرة وحيث دست الحقيبة وكأنها تدري أن سراً ما يختبئ بين الجيوب، وقد بدأ لونها يُخطف وأنفاسها تعلو مُتقطعة، وكأن عيون الكون تراقبها وهي تتعمد ألا يصدر عنها أي صوت يشي حتى بوجودها في معزل عن جمع النساء. قالت لخالتها قبل دخولها الغرفة: سأتمدد قليلاً، فهذا الحمل يا خالتي يدكّ أوتادي، سأعود إليكم بعد قليل.

أوصدت فاطمة الباب، تاركة يدَها تفتش عن حقيقة تنشدها بين الجيوب، علها تجد نفسها أو تجد إشارة ترشدها لسواء السبيل.

لا شيء في الحقيبة سوى عطرها الـ» بولجري»، وقلم كحل أسود مكسور من ماركة «لانكوم»، واصبع حمرة من «ديور» لم يستخدم بعد. زهري لامع يناسب سمرة بشرتها وقد يداوي تشققات شفتيها الجافتين على الدوام.

أين الهاتف يا ميرة؟ وجدت بقاياه وبطاريته، يبدو أنها سكنت في وادٍ سحيق حيث ارتميت... وضعت بطاريتي مكانها وبدأت أدعو الله أن يشتغل... هاتف غبي، لا بد أن يعمل، لن أقبل بأن يضيع هذا الخيط مني.

حاولت فاطمة دون جدوى، فلا أرقام ولا عناوين ولا بارقة لون أو إضاءة تفيد بأنه سيعمل وسيهديها لتتحقق من ظنونها بعبد الرحمن. هي لم تعد تشك بعلاقتهما قط، ولكنه الشك في أنه أحد الخيوط التي جعلت ميرة تنزلق لترى حتفها بهذه الصورة، وخلف هذه التفاصيل.

استلقت على السرير متكوّمة على نفسها. قد تكون وفاة ميرة اليوم رحمة لي، وعودة عبد الرحمن إلى صوابه أخيراً. الآن فقط تتكشف لي تفاصيل لم أكن أستطيع أن أفسرها سابقاً لاستكانتي وقلة حيلتي وغالباً لطيبتي الزائدة عن حدها. هاتفها الذي نسته ذاك اليوم الماطر وهي تهرع للنزول من سيارتي، بعد استغراقنا في حديث مطول عن رفضه المستمر وعناده في ما أرغب فيه بشدة، وكأنه يتلذذ بالرفض وبكبت رغباتي التي لم تكن تتعدى مصالحنا ورغبات الأطفال وطموحاتهم. وقتها، كان محمد يريد أن يلتحق بالمدرسة التكنولوجية، وقد من أساتذه وفنيين، وحين أخبرته عن اتفاقنا أنا ومحمد، وأننا نريد مباركته، رفض... خيبتي لم تكن منه هو، بل من وقوفك في صفه ناصرة ومؤيدة لقراراته، حتى تلك التي لم يكن ليختلف عليها اثنان، كنت تقولين لا بد أننا لم نفهمه بالشكل الصحيح، لا بد أن نعيد التفكير بالموضوع وأن نحاول من جديد... الجديد يا ميرة، أن هاتفك الذي نسيت ذاك اليوم، لم يكن ليتسع لمزيد من الرسائل النصية، فبدأ بإرسال صوت يشي بامتلائه. انتبهت أنك تركت لي وجعاً أسهر معه لسويعات حتى تنتبهي لفقده، فقد رشقك عبد الرحمن بأمنياته أن تكونا ملتحمين في لحظة عشق، متماهيين مع حبات المطر وتهاطل برد نسماته.

... إليّ عودي واتكئي هنا
حيث ترتخي عضلة ساعدي الأيسر
هنا حيث تغرد عصافير روحك منتشية
وحيث أنا بلا لون سوى سمرتك
وملامح تيهك دوني
إلي عودي
أتوجك غمامة
أرسم على معصمك قيدي ومفتاح قلبي وبعضاً من طيور الأساطير القديمة
عودي
نشتم رائحة العشب بعد المطر
نتنفس من رئة الحب الظمأى
ونعدو .. نعدو ..
حافيين
بلا قدم
بلا ساق
بقلب نابض متعب...

عُدتِ مسرعة وطرقت الباب بكفك الناعمة، وأظنني وقتها أحسست أن الباب قد خرق، حتى التبس علي الأمر، نعم هو صوتك، ولكنها ليست يدك! وجهك مخطوف لونه وعيناك تبدوان في وضع

مزرٍ، وأنا كأن شيئاً لم يكن. بل أبديت خوفي واستغرابي ولهفتي: ما بك، ماذا حصل؟

هدأت من روعها ثم سألتني: ألم أنس هاتفي النقال عندك في السيارة، لا أجده في حقيبتي، وأنت تعلمين كم يستاء عبد العزيز حين يتصل ولا أجيب...

عبد العزيز... قلتها بتجهم واستنكار؟ لا لم أنتبه. تعالي نبحث عنه. ووجدناه يا ميرة حيث كنت قد اتكأت تقرئين.

آه يا ميرة... مرة أخرى هاتفك، وقدر أن أكون أنا...

10

عانق عبد العزيز سارة فجأة، وهما يمضيان نحو غرفتهما في فندق (مونتسلو سبلنديد) في فلورنسا. تلفت يمنة ويسرة، ثم ابتعد عنها. تقدّمت نحوه، قبلته ولفّت ذراعيها حول عنقه تطوقه وتدنيه منها، مصرةً على أن تكون هذه الرحلة فرصتها للظفر به.

رغم هدوء المكان وقلة النزلاء في هذا الفندق العتيق القائم في منتصف فلورنسا، قبالة ساحة الكاتدرائية، يبقى عبد العزيز كعادته على الدوام، حذراً ومحتاطاً. لم تفهم سارة ردة فعله الغريبة تلك وإن قررت تجاهلها، فهما خارج حدود موطنه، ولا مبرر للخوف والتلفت والتخفي عن عيون الغرباء. ألا يكفيه أنها تقيم في دبي منذ ثلاث سنوات دون أن يعلن زواجه منها، وتكتفي بلقائه في المناسبات الخاصة بالعمل؟ يتعاطيان معاً متى سنحت الفرصة، كمسؤولة لتنظيم مؤتمرات واستاذ جامعي وباحث.

بقيت سارة تطوقه بذراعيها، وهما في طريقهما إلى الغرفة. الممر ضيق، خطواتهما متقاربة، وعينا عبد العزيز ما زالتا تحومان في المكان ولكن بتوتر أقل. طأطأ عبد العزيز رأسه يريد أن ينظر في ساعته، ففكت سارة ذراعيها من حوله، واعتدلت في مشيتها. أزاح طرف كم قميصه

عن عقارب ساعته، ونظر، لقد تأخر الوقت على موعد العشاء، قال، فقررا أن يتوجها إلى مطعم (انيوتيكا نبكيوري) القريب من الفندق، حيث يقدَّم البط المحشو بالزبيب الذي يحب، ومن مقهى (لا جيوسترا) الشهير بالحلوى التي تحبها هي. ابتسمت سارة وتهللت أساريرها، فدلفت مسرعة إلى الغرفة وراءه.

عند عتبة الباب، تعلقت عيناها برسومات الجدار وجمال الغرفة، ولكن عبد العزيز استعجلها ذلك أنه يتضور جوعاً، وقد أرهقته الرحلة التي استغرقت أكثر من سبع ساعات. سحب يدها من على المقبض الذهبي ذي الرأس البلوري الأصفر، وأغلقه. داعبها، وقبل أن تسرقهما لحظة الانتشاء، انسلت سارة من بين يديه لتدخل دورة المياه وتصلح مكياجها. عندما خرجت، سألته عن حقائبها لأنها تريد تغيير ملابسها بما يتلاءم مع موعد عشاء. يبدو أن الحقائب تأخرت بالفعل، أجابها عبد العزيز وهو يرفع سماعة الهاتف. تحدث مع موظف الاستقبال، بينما جلست هي متعبة على الأريكة، تطالع الساحة حيث الكاتدرائية والقبة البرتقالية المرتكزة في وسطها، من علو بسيط في الطابق الأول، بحيث تكاد لو مدّت يديها، تلامس أغصان شجر الصنوبر وتداعب السناجب القافزة عليها، في غرفة ملكية المعالم، مليئة بالتحف والمرايا والثريات، نحتت على جدرانها لوحات تروي قصصاً وأساطير.

استلقى عبد العزيز بجانبها على الأريكة، يقلب محطات التلفاز على عجل لاقتناص آخر الأخبار على شاشة قناة الجزيرة، أو البي بي سي، بانتظار أن تصل الحقائب. همّ بتقبيلها ومداعبتها، إلا أن موظف الخدمات

قرع الباب، قبل أن يدخل وهو يجر حقائبهما على حمالة ذهبية الأعمدة تحمل في أعلاها رؤوس خيول.

تناول عبد العزيز سترة الوقاية من المطر، واضعاً على رأسه قبعته الزرقاء المائلة، فيما غيرت سارة ملابسها، تناولت مظلتها التي تحمل صورتيهما في باطنها، علقتها على معصمها، وشبكت أصابعها في أصابعه.

مضيا نحو المطعم الذي يبعد عن الفندق بضعة أمتار. خبأ عبد العزيز هواجسه تحت زرقة القبعة، ممزوجة برغبة العيش معها بهيام وحب، فيما استرسلت سارة تحدثه عن جمال الأسطورة المصورة على جدار الغرفة، والتي تروي زواج سندباد من ابنة ملك البلاد الواقعة خلف البحار، ووفاتها وضرورة دفنه معها بحسب أعراف وقوانين تلك البلاد.

شد عبد العزيز سارة إليه وعانقها، غمرها بقبلة دافئة تحت زخات المطر، أرادها أن تتوقف عن سرد القصة التي يحفظها عن ظهر قلب، وقد ملّ التفاصيل، فانتفضت كعادتها وأغمضت عينيها بخجل. قال لها، غداً تقصين على أولادنا ما تشائين من الأساطير والحكايات التي تستهويك وتحفظينها بشكل لافت، ثم أشار بإصبعه الى محل لبيع الصباغ وأدوات الرسم والتلوين، وأضاف: حبيبتي، ذكريني قبل أن نغادر فلورنسا أن أشتري لبنتيّ محبة وعلياء أدوات الرسم التي تحتاجانها، فهما بارعتان في رسم التفاصيل الدقيقة المستوحاة

من حديقة المنزل، الطيور والأشجار والأغصان. لقد وعدتهما وأنا أودّعهما، أن أمر من هنا وأنتقي لهما الألوان التي تحتاجان، فهما تعرفان جيداً هذا المحل، وقد أمضيتا وقتاً طويلاً فيه مع والدتهما ميرة.

راقبت سارة شفتي عبد العزيز وهو يتحدث عن بنتيه وعن اهتماماتهما، وفي خاطرها رغبة أن تكون جزءاً من عالم يتباهى به، متسائلة هل سيأتي اليوم الذي يتحدث فيه عن أطفاله معها هي بالطريقة نفسها؟ هل سيعترف بها أمام الملأ والعالم وهل ستكون لها فرصة التعرف الى ميرة وربما حتى العيش معها تحت سقف واحد؟

وصلا إلى المطعم، أخذ عبد العزيز من سارة المظلة، وناولها للموظف على الباب ليعلقها مع سترته في المكان المخصص، ثم رافقها إلى الداخل حيث جلسا متجاورين في مكان منزوٍ. لم يمهلهما النادل إذ قدم لهما على عجل قائمة الطعام المقتصرة على بعض مأكولات يشتهر بها المطعم ولا تتجاوز خمسة أطباق، حساء اليوم، والمشروب. قررا أن يتشاركا طبق البط المحشو بالزبيب وشوربة الطماطم بالهليون. على المائدة، بدت سارة منزعجة من النادل الذي لا يستوعب مزاجها ورغبتها في عدم المقاطعة، ومبالغته في تقديم الخدمة، لكنها عادت وأمسكت نفسها وأخذت تدندن بصوت خافت، «أنا لحبيبي وحبيبي إلي، يا عصفور بيضا لا بقا تسألي، لا يعتب حدا ولا يزعل حدا، أنا لحبيبي وحبيبي إلي»... رد عبد العزيز هامساً، «وشو بدي بالبلاد، الله يخلي الاولاد»... فضحكت سارة ملء قلبها. كعادته، رمى عبد العزيز خيوطه ليصطاد بها ضحكات من شفتها العذبة.

11

عاد الطقس يناوشهما، برقٌ، ورعدٌ، ومطر يعزف على الشبابيك وينقر عليها، وهما يتناولان طعامهما بهمس ودندنة تفيض بالحب. غالبت سارة رغبة ملحة في إفشاء سر خبأته منذ شهر عليه، لكنها وجدت أن الوقت غير مناسب، فأطبقت شفتيها على ابتسامة خفيفة، وعادت تشبك أصابعها بأصابع عبد العزيز، وتكمل الغناء معه.

«عبد العزيز أنت مختلف حين نكون خارج الحدود»! قالت سارة، تعبيراً عن غرامها باللحظات التي يسرقها من عمره ليهديها إياها. «أنا مختلف لأنك يا سارة، امرأة تستحق أن تعيش بشكل استثنائي. هو قدرك يا حبيبتي، وقدري الذي جاء ليرضيني بما أحب وأشتهي، ويعوضك بي، فأنا كما تعلمين رجل في زمن قلَّ فيه الرجال». ضحكا وألقت سارة رأسها على كتفه، مؤكدة ألا رجل يرضيها سواه، وأن ما قاله ممازحاً، هو حقيقة ما تشعر به حياله.

كان عبد العزيز قد اكتشف أخيراً أن سارة حامل، لكنه لم يشأ أن يفسد عليها ما تخططه سراً. قال لها: ألا تودين أن تخبريني شيئاً؟ فأجابت: ليس أكثر من أني سعيدة بوجودنا هنا وبأننا نستطيع أن نمضي

وقتنا بشكل طبيعي كرجل وامرأة يغمرهما الحب وينتشيان بالعشق، ليس أكثر من الاستئناس بالنظر إلى وهج الحب في عينيك يا عبد العزيز، ومعرفة ألا أشغال لديك تقصيك عني وتشعل فتائل حنيني إليك، وتتركني في حالة انتظار طويل. تحدث أشياء كثيرة أتوق لأن تشاركني فيها، لكنها تفقد بريقها بعد حين. أريدك في كل وقت معي، ومستعدة أن أكون كما تريد. سأرتدي عباءة وأضع غطاء على رأسي، سأدرب نفسي على عاداتكم. ضحك عبد العزيز قائلاً: لا تسترسلي، أنا أحبك كما أنت، غجرية، مجنونة وبسيطة في كل شيء. إن عدم تكلفك في ملبسك وزينتك أغراني، وحبك جرجرني دون هدى خلفك. ثقي بي يا سارة، الحب قدر، كما هي الحياة، وأنت أجمل أقداري.

12

بعد انتهاء العشاء، غادرا المطعم ووصلا سريعاً إلى مقهى الحلوى، إذ انهمر المطر بغزارة وأطاحت الريح طاقية عبد العزيز الزرقاء، ومظلة سارة التي حلقت بعيداً في السماء. اختارا طاولة في الخارج، وجلسا ملتحمين، يتناولان «الهوت شوكلت» الذي تفضله سارة مع «المارشميلو» الملون، ثم قررا العودة إلى الفندق وقد استمتعا بما يكفي بأجواء المطر.

ألقى عبد العزيز بسترته على رأسه ضاماً سارة إليه، وخبأت هي كطير صغير رأسها في صدره، وانطلقا عائدين. فور وصولهما الغرفة، ارتمت سارة على السرير، وجلس عبد العزيز الى المنضدة وقد بدا متعباً، يراقب المطر الهاطل في الخارج، والريح العاصفة تتلاعب بالستائر الحائلة دون مشهد تطاير أوراق الشجر، اهتزاز الأغصان، وتَلبّد الغيم الأسود في سماء فلورنسا.

لقد اعتاد عبد العزيز مثل هذه الأجواء العاصفة، فكثرة سفراته ومشاركاته في المؤتمرات الدولية، ممثلاً للإمارات ولجامعة (دبي)، أتاحت له فرصة التعرف والتكيف مع مختلف المناخات. كانت سفراته

فيما مضى، عاجلة ومقتصرة على العمل، ولكنها سرعان ما تبدلت بعد ارتباطه بسارة، فصار يقضي معظم وقته خارج البلد، مشاركاً في مؤتمر أو مناقشاً أو محاضراً، ولطالما ابتعث للعمل خارج الدولة برغبة منه، وتحيّناً لفرصة العيش مع سارة من دون منغصات وأعين متلصصة فضولية.

قبيل سفره، قرر عبد العزيز أن يمر بسارة في شقتها في منطقة الممزر، مودّعاً، وبالصدفة قابل عبد الرحمن أمام السوبرماركت، أسفل بنايتها تحديداً. وكأن أحداً صب الماء البارد على كليهما، جمدا واجمين دون سلام أو حديث، فماذا يفعل كل منهما في بناية تقع في الطرف الأقصى من المدينة؟ تصافحا ومضيا دون سؤال، يتخبطان بين أغراض السوبرماركت الصغير، حتى تقابلا عند المحاسب وهما يحملان قنينة ماء ترطب ريقهما الذي جفّ من أثر الصدمة. افترقا وهما على يقين أن الآخر يخبئ شيئاً ما في هذا المكان. على أثر هذا اللقاء، قرر عبد العزيز أخذ سارة معه في رحلة العمل هذه، وبعد العودة سيختار سكناً آخر، بعيداً عن هذا المكان المشبوه بسره وسر عبد الرحمن.

أغمضت سارة عينيها تحميهما من نور البرق الساطع. شعرت بالنعاس يتسلل إليهما، لا قدرة لها الآن على النهوض لتبديل ملابسها. ترتاح قليلاً ثم تقوم. ما تراه يفعل الآن؟ هل غفا على كرسيه؟ هل عادت إليه هواجسه من أن يكتشف أمرهما؟ لقد تركت أهلها ووظيفتها، وباتت ملتحفةً بشال رجل عشقت بداوته، واشتمت فيه رائحة الصحراء والعشب والمطر، ولم تلتفت يوماً لكونه رب أسرة، ولكونها دخيلة

على مجتمع مغاير بكل تفاصيله وعاداته وأعرافه، وحتى قوانينه. تونس الخضراء لا تشبه دبي، وحتى اللهجة العربية المتكئة لديها على إرثها الفرنسي، لا تشبه ما وصل إليه د. عبد العزيز في دراسته في بريطانيا، من لغة انجليزية تكاد تفك حروفها، إضافة إلى تمسّكه باللهجة الإماراتية البدوية. في منطقة العوير وأحيائها ومزارعها وامتداد براريها وكثبانها الرملية، ترعرع وشبَّ حيث كان يجد نفسه في خيمة لا تتعدى طوله الذي لم يتجاوز 175 سم، يستظل بأوراق سدرة لطالما اعتقد أنها جنته، وأن هذا الفضاء وتلك الخيمة هما فسحة الروح التي يركن إليها، هرباً من زحمة الناس والحياة. لكن عبد العزيز تغيّر كثيراً، فلم تعد « العوير» ولا حتى « دبي» موطناً يشتهيه، فقد تشكلت لديه، لكثرة أسفاره، قناعات أخرى.

منذ تعرفت إليه في قاعة المؤتمرات الكبرى، في «المغرب»، حيث كانت موفدة مع لجنة لتنظيم المؤتمرات آنذاك، حاولت جاهدة أن تلفت انتباهه. دون جدوى. لقد بدا جاداً ومثالياً ودؤوباً، مع كاريزما جاذبة. إلا أنها شعرت أن هناك طفلاً وديعاً يسكن خلف تجهّمه، يلوح متى ابتسم، ويشاغب متى ما أتيحت له فرصة العبث واللهو. ولأنه لا يستطيع بأي شكل من الأشكال أن يكون عابثاً فحسب، ولأنها راحت تحوم حوله بطريقة مربكة حد الغرق، وجد عبد العزيز نفسه متورطاً بعلاقة لا فكاك منها. ثم تزوجها وقرر أن يواجه مصيره معها ويخبر أسرته بذلك.

تورط عبد العزيز وانحدر في عمق يصعب دونه التنفس، إلا من خلال رئة تحمل أكسجين حبها، فكيف يقبع في كل هذه التناقضات بين امرأتين، يفيض عالماهما بصنوف الحياة، ويعج بالأسلة المحيّرة. فسارة ليست كميرة، وميرة لا تشبه أي امرأة. كلتاهما عالم بحد ذاته يغريه بالولوج وفضول التجربة. وفي غمرة انشغالاته، فقد عبد العزيز امرأته دون أن يدري. وجد نفسه هارباً من علاقته بسارة، ليعود إليها بانجذاب أكثر. التزاماته وجدول أعماله المليء بالواجبات المنزلية والأكاديمية لا تكاد تفرغ، وأصدقاؤه ينفكون من حوله تباعاً. عمل، وواجبات، وبيت، وأبناء، وأسرة. أم ثكلى ما تزال تبكي زوجها ورفيق دربها منذ خمسة عشر عاماً مضت، وابنها الوحيد قلما يبرها بزياراته وسؤاله عنها. كانت زوجته ميرة تبر أمه أكثر منه، هي تعرف كيف تكسب ودّ الناس، وتعرف كيف تجد لها منافذ إلى قلوبهم.

في ذلك المؤتمر الدولي الكبير، شارك عبد العزيز متحدثاً رسمياً وممثلاً عن جامعة «دبي». وبعد عدة لقاءات ومحاولات فاشلة في القاعة، وفي زخم الحضور والانشغال، يئست سارة من فرصة التعرف إلى هذا الإماراتي الوسيم الجاد، فشغلت نفسها بما أوكل إليها من مهام، حتى التقته صدفة بعد حين، فانتهزت تلك الفرصة القدرية وصارت رفيقة مشاويره، وأنيسة دروب عثراته ونجاحاته، وكل الحياة كما اعتقدت.

تسكعا كمعتوهين هاربين من قيود الحياة، في أسواق المدينة القديمة

بـ«مراكش»، والتقيا أكثر من مرة صدفة. كانت تبحث عن « قفطان» مغربي تلبسه في الحفل الختامي للمؤتمر وللجهات الداعمة والمنظمة، فشاركها ناصحاً وموجّهاً ومبدياً رأيه بفضول غير معتاد، فزياراته المتكررة إلى المغرب ومشاركاته في فعاليات متنوعة في المسرح والتراث والفنون، جعلته يتعرف الى تفاصيل البلاد وثقافتها وإرثها، إذ كان غالباً ما يمشط الطرقات ليل نهار، في أوقات فراغه، بحثاً عن اللا شيء.

كان الحنين لمكان ما ولزمان ملتبس، يجمع ما بينهما، تنطقهما اللهفة للحضور، ويخرسهما الغبن بالتستر والخوف من الوطن حيث يسكن أبناء عبد العزيز، وحيث الزواج من امرأة أخرى، سراً ودونما مبرر، هو جريمة لا تغتفر بالنسبة إلى معلم واستاذ جامعي.

اخترق برق قوي صدر السماء، فأخرج عبد العزيز من صمته، إذ نظر أخيراً إلى سارة قائلاً: هذا العصف المحيط بنا يا سارة ليس إلا طقساً يفترض أن نكون اعتدنا عليه. فما يعتريني ويبعثر أوراق أيامي وتاريخي، كلما دلفت موطناً معك، متستراً عن كل عين تعرفني، هو الشعور المخيف والمربك نفسه، وهذه الحلكة نفسها التي قضينا فيها الأعوام الثلاثة المنصرفة... ما بالكِ واجمة، وكأني أصدمك بحديث لم تدركيه بعد. أولست المرأة المجازفة، الجريئة والمحبة للتغيير والتجديد؟ بربري لي الآن على عجل، فقد نفد صبري، ماذا يعني أن تحبلي في وقت لا يتسع لذلك؟ أولم يك بيننا اتفاق على أن نبقى محلقين في أفق التمني الذي نشتهي، دون قيد ولد، ودون أن نلتفت خلفنا وقت نقرر أن نترجل من ترحالنا، ونستقر في أوطاننا؟

نعم يا عبد العزيز.. نعم، أجابت سارة مرتبكة، ولكني مدركة وواعية أني أريد أن أستقر بحالي فيك، وأن يرتبط ويوثق في سجل حياتي مرورك بي، فاعذر فراشتك الباحثة عن متنفس مضيء، ولتكن بقعة الضوء هذه فقط مقلتيك ولا شيء سواهما.

تنهد عبد العزيز بأسى واضح، ثم زفر من عمق أعماقه، قبل أن يردف: آه يا سارة، كلما أوشكنا على الانفكاك من قيد التستر هذا، عقّدتنا به أكثر. وكلما أردت أن أعود من أسفاري دونك، ربطتني بقيودك أكثر. مطولاً عن امرأة مشغول قلبي بها وعاطفتها تنبض بين جوانحي، ولم تستكيني ولم تيأسي. أي عناد هذا، وأية طاقة تحملين؟ ألا تغارين منها؟ ألا تغتاظين؟ لقد حدثتك مراراً ومراراً عن حالات جنونها وتعقلها، وعن تقاربنا في كل شيء.

حدثتك أني ومنذ أن هبطنا في مطار روما، وطيلة رحلتنا في القطار إلى فلورنسا، وكل الوقت الذي مضى منذ ودعتها وحتى اللحظة، وأنا أظنها تريد شيئاً لم تقله، وأظنني لم أشف بعد من حمّاي التي ما أن تنخفض، حتى ترتفع مجدداً. لكن هذه المرة، أنا مشتاق حقاً لأم أولادي، ولطالما أحسست بتقصيري تجاهها، خاصة حين تغدق علي الحنو والعطف، وحين تأتيني دون أن أسأل، وتلبي رغباتي قبل أن تلمع شرارتها فيّ. في الزيارة الأخيرة لدبي، لم نلتق كثيراً، كانت منشغلة بالأولاد ومتاحة كعادتها. فقبل أن أرنو إليها، تدنو مداعبة وليس مثلها امرأة. هي متيقنة الآن أنك حبلى وبين يدي تتكئين، أني مرتبط بأخرى

رغم أني لم أصرح، ومع ذلك لم تسألني أو توجه لي نظرة عتاب واحدة تلومني بها على زواجي بك؟ هي هكذا، حالما تحس بازعاج يطال إحساسها، يغيب نور عينيها عني عمداً، وهكذا نحن منذ أن ارتبطنا. أفهم أن أمراً ما يضايقها مني حين لا ألمح بريق عينيها الصافي، فأهرب للبعيد، ليتنازعني هذا الإحساس المقيت بالتأنيب. قصّت عليّ ذات صبح، ونحن نحتسي كعادتنا في أوقات الصفاء، فناجين القهوة المرّة ونتذوق راحة الحلقوم التركية بنكهاتها التي تختار لي، فصلاً لا يشبهها عن ذكريات طفولتها. أخبرتني عن طيشها، ولحظات تمردها وجنونها، وصورت لي كل المشاهد، فعشتها معها بفرح وشغف، وقهقهنا حتى انتصف النهار وسادت الشمس السماء. لسعتنا أشعتها، فالصيف في « العوير» وتحديداً في حوش منزلنا المتطرف، ليس كأي منطقة في دبي. وما زلنا نضحك، وما زالت تحرث في أرض ذكرياتها وكأنها تعيد توضيب زرعها ووردتها، وتشذب أوراق لوزتها المعقوفة على الجدار الخلفي في بيت جدها، الحاج عبدالله القاضي رحمه الله. لا أدري يا سارة لم أنا أعيدها اليوم عليَّ وإياكِ، لا بد أن أفتح هاتفي الخلوي، فوقت طويل مر وأنا لا أدري شيئاً عنها والأطفال، وأتحجج لنفسي هارباً من سؤالها أين أنت؟ بم سأجيب؟ هذا التناقض الذي أعيشه، وضعفي أمام فيضها، يجعلني حتى عاجزاً عن حياكة كذبة محبوكة التفاصيل، أو المصارحة وتحمل مسؤولية ما أنا فيه. للأسف يا سارة، جبانٌ هو من تعلقتِ به، لا يقوى على كسر قلب امرأة محبة غافلة، أو صابرة تتوجس خسارتي أو خسارة نفسها.

13

نام عبد العزيز ولم يفتح هاتفه.. لم يشأ أن يربك العاصفة بالمزيد من التوتر والخوف. كان الهروب ديدنه حين يشتد عصف روحه، وتزأر عواصف القلب، معلنة انهزامه وتمرد أشواقه. لقد شاركته الأجواء الماطرة غزارة تهاطل أحزانه، فنام مطبقاً شفتيه، ولم يأبه لسارة وفرحتها بالحمْل.

نام أو ادعى النوم. لا قدرة له على مواجهة فرحها. منذ أن تعرف بها في المغرب وهي معه، ترافقه في حله وترحاله، تتحمل فصول رغبته وامتناعه، وتتفهم طقوس انشغاله. في كل ظروفه، وجدها حوله، محيطة به كشاله الملتف على عنقه، مع كتابه الذي يحب، تندس فاصلة الوقت بالحب والرغبة، واللذة في منتهاها، وكأنها الحرف والسطر.

كان قرارها الذي رضخ له، برغم أنه لم يك يعرف حينها ماذا يعني أن لا ترجع لبيتها ووطنها، ولو لمرة واحدة، وألا يسوقها الحنين لدار وأهل؟ ما معنى ألا يسأل عنها مخلوق من تونس التي تشبهها اخضراراً وثورة واشتعالاً؟ وألا تتعرف بالصدفة إلى أحدهم في شارع أو زقاق، أو حتى على متن طائرة أو قاطرة؟ ألا يشدها الحنين إلى أم، أب، بيت؟

لم تتحدث منذ ثلاث سنوات ونيف عن أي شيء، إلا أنها مصرة على البقاء معه بالشكل الذي يريحه ويرضي غرور أي رجل شرقي. إن تمسكها به لهذا الحد واختصارها العالم في شخصه، مريب حد التشكك في وضعها، وشخصها، وانتمائها، وفي قدرته على جذبها لهذا الحد دون الفكاك. أي مغناطيس تريننني أملك يا سارة؟

وأجل، لأكثر من مرة حاول التحري عنها وعن جذورها أو أي شيء يمكن أن يوصله لمفاتيح كتابها المغلق بإحكام. خابت كل محاولاته، فهي سارة عزيز حوراني، وهذا اسم لشخصية في سجلات بلدها تكبرها بثلاثين عاماً، ولديها أولاد وزوجها محكوم في قضية سياسية مؤبد. أما الأخريات اللاتي تقارب أسماؤهن اسمها، فإما أصغر بكثير، وإما متوفيات. آخر واحدة تطابقت معلوماتها معها، كانت لا تشبهها أبداً، وكانت متزوجة ولديها ابن مصاب بالتوحد. التوحد مرض غريب يا سارة، يسكن فيه الفرد، حيث يختلف فيه تفسير الرموز والمعاني، وكأن أدمغة المصابين به مبرمجة بشكل خاص، فيها الصور والإشارات والأصوات لا تفسر كما نفسرها نحن. بل بشكلها الخاص والمرتبط بعالمهم الذي يتوحدون به.

.. أتعتقدين أننا نعيش في عالم حقيقي؟ ألا تظنين أني متوحد وفي عالم غير حقيقي؟ هل أنت مثلي تعيشين خارج الواقع، أو على أطرافه؟ سارة، ألا تدنين مني فأشتم رائحة دخانك الذي يقهرني بعنادك على ممارسة تحررك وانفتاحك الزائد؟ فلا تيأسين ويساورك الإحساس

بالضجر من رجل جبان، عاجز عن مواجهة امرأته بزواجه الثاني، يتخفى كالنعام ظاناً أن لا أحد يرى ضخامة جريرته وطول عنقه؟

تقلبت سارة منزعجة، فأغمض عبد العزيز عينيه، مخافة أن تقبض عليه متلبساً بأرقه. ما هي إلا لحظات قليلة، حتى عادت أنفاسها تتهادى، منتظمة على صفحة النوم. استدار على مهل صوبها، وعاد يفتح عينيه عليها، راجياً أن يخترق صوته الصامت مقلتيها المقفلتين.

سارة، أنا متعب ومريض جداً، وأظنني أحتاج أن أعود إلى بيتي، أشتم ياسمين مجدل مع ضفائرها التي تمتد كالمدى، وأغمس خبزاً يابساً في كوب حليب ساخن، فتذوب قطع خبزي في الكوب وتمتزج، ولا أشربه ولا آكل الخبز الذائب. أريد أن أعود إلى بيتي، حيث يحيل اطفالي الصمت أغاني والكآبة رقصاً. محمد ومهند شعلة من الحراك والذكاء، محبة ومنتهى جنة قلبي المبتغاة، وجهاهما كقمر في ليل معتم، كأنهما عروستان، بريئتان، ومبدعتان في الدلع. أما عبد الرحمن الصغير، فهو قصيدة الحب وتغريدة البلبل الصداح، وصوت الحنين الذي يشدني إلى العودة عندما يطول بي الترحال.

كم الساعة الآن؟ هل هدأت العاصفة؟ لا أسمع إلا صوت المطر القارع نوافذنا. أشتاق صوت ميره، أو أحد « الكتاكيت» الأربعة المشاغبين. كم أحب مباغتتهم إياي، يختصرون الطريق علي بلهفتهم، فلا يبقى بعد الحديث معهم، أي معنى للخوف أو القلق من الآتي...

فتحت سارة عينيها والصباح يعلن بالكاد عن قدومه. شعرت أن

طعم غصة يوم أمس لم تبارحها، فقامت على مهل كي لا توقظ عبد العزيز وقد أحسّت من تململه المستمرّ طوال ليل أمس، أن الأرق كان رفيقه. سارة قلقة على الدوام، ما عانته في ماضيها، قبل أن تلتقي عبد العزيز، هو ما قادها حتماً لأن تكون ظلاً لرجل يغيب.

وقفت أمام النافذة، تتأمل هدأة فلورنسا بعد يوم عاصف، والقباب الزرق لكنائس المدينة العتيقة التي تتآخى ألوانها مع زرقة السماء، فلم تنتبه إلى عبد العزيز الذي انتفض فجأة، كغريق، وهو يسأل بلهفة الناجي عن هاتفه الذي لم يجده في متناول يده.

أجابته سارة باقتضاب أن الهاتف ما زال على الشاحن منذ مساء الأمس. نهض من السرير بقفزة واحدة وانقض عليه، توسد يد الأريكة المرتكزة على إحدى زوايا الشقة، والقريبة من النوافذ المشرعة والنسمات الباردة المتسللة للروح.

فتح الهاتف، فتسارعت الرسائل في الورود إليه، إلا أنه سرح في لحظة امتدت طويلاً، بعد أن وقفت الدماء في عروق وجهه، واصفر لونه. وجم طويلاً وكانت سارة قد تركته وذهبت تعد الفطور وتسخن الحليب. دارت به الدنيا، فشد أصابعه يغرسها في جلد الأريكة حيث جلس، وقال بصوت متحشرج مخنوق:

– ربِّي لا أسألك رد القضاء، ولكني أسألك اللطف بي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... سارة، هلمي إلي بكوب ماء، صبيه على رأسي لعلي أفيق.

جاءت سارة راكضة، ولما رأته على هذه الحال، سألته مذعورة: ما الأمر عبد العزيز، ولم كل هذه الدموع؟ قل لي بربك ما جرى؟

– لا أدري، ولكن أظن أن مصيبة حلت ببيتي وأن ميرة في خطر. وصلتني عدة رسائل آخرها أن آتي على عجل وفي أقرب وقت، وكانت قرابة التاسعة مساءً، يعني قبل 12 ساعة من الآن... لن أحدث أحداً حتى أصل... جهزي الحقائب، سنعود على أول طائرة...

ما زال عبد العزيز لا يستوعب كثرة الاتصالات من الأهل والأقارب وحتى من أشخاص لم ير أرقامهم منذ زمن، محاولاً ألا يعبث أكثر في فضول التعرّف الى المصيبة، وألا يقرأ أكثر في هاتفه المتبالد على غير عادته. فلا رسائل عبر تويتر، ولا فيسبوك، ولا انستغرام، الواتس أب والبلاك بيري ماسنجر أخرسان، وكل وسائل التواصل الاجتماعي صامتة مع انقطاع الانترنت بسبب العاصفة. لقد فشلت كل محاولاته في التشبيك مع الواي فاي في هذا الفندق ذي السبعة نجوم.

وقفت سارة واجمة لا تستطيع فك عصبة شفتيها لسؤاله مجدداً عما جرى، أو حتى لتهدئته، وقد شعرت أن عبد العزيز ما عاد يستطيع التوجه بنظره خارج حدود نظارته السميكة التي تقوقع في إطارها، خوفاً مما ينتظره من مصير.

14

السفر في الصباح مزعج، خاصة الضجيج وصحوة الناس باكراً، بعد استراحة ماطرة كتلك التي عاشها عبد العزيز قبل أن يفتح هاتفه، ويفاجأ بوابل الوارد إليه من رسائل. جرجر عبد العزيز حقيبته مثقلاً بالظنون، وكأنه يجر العالم في أعقابه. عادة يأخذ هو حقيبة صغيرة جداً منتقياً بحذر متاعه، أما سارة فتجرّ عربة عليها حقيبتان كبيرتان مليئتان بالملابس والحقائب اليدوية والأحذية، وأخرى على ظهرها، فيها جهازها المحمول الذي يرافقها أينما ذهبت، وحقيبة صغيرة بداخلها أدوات تجميل وعطر وقنينة ماء صغيرة، وكيس بسكويت مملح. وعلى الرغم من أنها لا تستخدم من حمولة حقائبها ومتاعها إلا القليل، يبدو أنها تخشى الفقد والفقر والعودة لأيام صفاقس الموحشة التي عاشتها بألم.

كان مطار (رونالدو دافنشي) مزدحماً كعادته، كثرة المسافرين تربك الحركة فيه، وتثير غضب وانزعاج عبد العزيز الذي يريد أن ينهي عذاباته وحيرته، ويصل العوير في لمحة بصر، علّ البراكين التي فارت في قلبه خوفاً من المجهول، تهدأ وتستكين. حاول أن يخفف من توتره

وقد جعله يتصرف دون ضبط، فاختلف مع موظف الاستقبال في المطار عندما أخبره أن المقاعد في الطائرة غير متجاورة، وأن درجة رجال الأعمال غير شاغرة ويستحيل أن يغير المقاعد من دون دفع مبلغ إضافي، فعاجله عبد العزيز بأن حجز تذاكر جديدة على الدرجة الأولى لينهي هذا الحديث، واشتبك مع آخر عند مدخل صالة الانتظار، فنعته بالمعتوه حين حاول أن يوقفهما للسؤال فقط عن وجهتهما.

التفت نحو سارة وراح يحادثها، عل توتره يهدأ. أمسك بيدها يرجوها: قولي لي إن ميرة وأبنائي بخير، وإن بيتي لم يحترق، وإن سيارتي البنتلي التي اشتريت مؤخراً لم تهشمها ميرة كباقي السيارات التي أحب. هي لا تعرف من فنون القيادة غير الضغط على محرك الدفع الأمامي. لقد استخرجنا لها رخصة القيادة بالواسطة. أغلب المعاملات، منذ الولادة وحتى الدفن، لا تمشي بسهولة إلا إذا غلفتها يد الواسطة الناعمة والدافعة بقوة. نحن نستغل مكانتنا الاجتماعية في كل شيء، لنحصل على قطعة سكنية بمواصفات عالية وفي مناطق نختارها بعينها، على أرقام سياراتنا وهواتفنا، ومناصبنا، ورخصة القيادة، ومعاملات صندوق الزواج، وحتى شهادات الميلاد والأسماء، ستصل أيضاً وأنت مستلقية في سريرك. هل تفهمين شيئاً مما أقول يا سارة؟ ما زلت واجمة، اعذريني، هل تحسين بإعياء؟ نحن لم نسأل حتى طبيبك إن كان بإمكانك السفر في شهرك الثالث أم لا؟

تداعت سارة عليه وأرخت رأسها على كتفه. وبوداعتها المفرطة،

مسحت على لحيته وقالت بهدوء: كل شيء سيكون على ما يرام، نصل ونطمئن على أهل بيتك. تأخذني لبيتي أولاً، ثم تعود إلي. لا تتركني ألوك انتظاري وقلقي! عدني ألا تتأخر وأن تطمئنني عليهم وعليك، مهما كانت الأوضاع، عدني، فأنا حقاً أشاطرك الآن الخوف، وأظنني أريد البقاء معك، لولا أني أعرف أنك لن تقبل ذلك. عبد العزيز، ماذا تتوقع؟

قاطعهما موظف الاستقبال في الصالة بضرورة الانضمام لركاب الطائرة المتجهة نحو مطار دبي على عجل. لم ينتبها للنداءات المتكررة، حتى سمعا اسميهما. صعدا كآخر راكبين الى الطائرة، وأوصد الباب من خلفهما.

جلسا بهدوء في مقعديهما، وأنفاسهما ما زالت عالية ومرهقة إثر المشي السريع نحو الطائرة. ساعد عبد العزيز سارة في ربط حزامها، ثم شد حزامه على وسطه بإحكام. أمسك بيده كتاباً وأراح ظهره على الكرسي، إلا أن سارة فكت حزام الأمان، وأسرعت قبيل إقلاع الطائرة الى دورة المياه. تأخرت قليلاً، فتعقبها عبد العزيز بالطرق على الباب، فخرجت لتجده ينتظرها. بدا قلقاً خائفاً عليها، فطمأنته بأنهما بخير مشيرة إلى بطنها، ولا شيء يقلق البته.عادا إلى مقعديهما وغرق كل منهما في كرسيه.

نظر إليها عبد العزيز مشفقاً وقد أدرك أنه نقل كل خوفه ووساوسه إليها. طبطب على كتفها، قائلاً: نامي قليلاً، وسأحاول أن أقرأ «وحدها

شجرة الرمان»، علّي ألهو بمأساة العراق، عن مأساتي... العراق، البلد الممتد كباسقات النخل والضارب في عمق بداوتنا وعروبتنا... كم أحب هذا البلد يا سارة، وكم أتوق للرجوع إليه، والتسكع في أحيائه وشوارعه، وشراء الكتب المصفوفة على الدكات والأرصفة وجنبات الجسور. هل أخبرتك أني ابتعثت إلى بغداد للدارسة الجامعية، وأني تعرفت هناك على ذاتي؟ فبساطة أهل العراق وعمقهم التراثي والفكري والمعرفي، أثرياني بالغ الثراء، حتى بتّ بينهم رقماً له قيمة ومعنى.

صمت عبد العزيز حين غفت سارة على كتفه وادعة. فتح كتابه محاولاً القراءة، لكن الهواجس على أنواعها غشت عينيه. وضع الكتاب جانباً، وتناول هاتفه، فتح الرسائل وراح يمر عليها سريعاً حتى وقعت عينه على رسالة عبد الرحمن، صديق العائلة وابن عمتها الوفي، فتحها وراح يقرأها غير مصدّق، إلى أن صمت الكون بأسره وتوقفت مراوح الطائرة عن العبث في فضاء الارتحال. حتى أنفاسه عاشت لحظة الموت وزفراته.

15

قرار مواجهة المصير، مهما قست ظروفه وملابسات تصوره، قرار صعب على ضمير لم ينَم، ولم يتّكِل على تبرير.

يتقدم عبد العزيز خطوة إلى الأمام لمواجهة ما يمكن أن يكون، وألف خطوة إلى الوراء، فما تراه يقول عن غيابه، وكيف سيقبل رأسها ويستسمحها في لحظة وداع أخيرة؟ كيف سيسمح بوضع ذقنه الخشنة على وجهها، هو الذي لطالما داعبها بوخزها بشعراته، فلا يهدأ لها بال إلا عندما تشذب ذقنه بمقصها، كما تفعل بشجيرات حديقتها عندما تعيد ترتيبها وتنسيقها، وفقاً لفصول تعيشها وتعشقها.

امتد به الألم كأفق لا تحده حدود، فغرق في لجة تموج به أعاصيرها ولا تسكن. كيف لم يخطر له، ولا مرة واحدة، أن الوقت قد يُسلب منهما، والعمر كذلك، فلا يترك لهما فرصة لقول كلمة أخيرة. اقتربت منه سارة، تأخذه من ذراعه، وتهمس مواسية: عبد العزيز، ما بالك سقطت من يدك النظارة مرات؟ قدماك لا تحملانك وأخاف أن تكون متوعكاً بسبب التهاب ما أو ما شابه. ما بالنا نمشي ولا تلتقي

خطواتنا، أسير باتجاه الخروج من المطار، وأنت تائه عني، حتى أكاد أظن أنك ستقع من بين يدي، وتتسلل كالماء فتنهرق.

حاولت أن تحادثه مراراً وتفتح موضوعاً علها تشغله عما به وتخفف بعض الشيء من قلقه، ولم تكن قد اكتشفت بعد أن عبد العزيز قد عرف أن ميرة ماتت.

بعد خروجهما من المطار، أخذا الطريق إلى شقتها، وبعد صمت طويل يعتصره الألم والتوجس، قال: لا تنتظريني سارة، فقد أطيل الغياب هذه المرة. كوني بخير وسنلتقي في الجامعة بعد أن أعيد ترتيب ما تبعثر... لا تنسي أن تفتحي ملفاً لمتابعة حملك، وسأتصل بك ما سنحت لي الفرصة بذلك!

هذه عادته لم يتغير، فكرت سارة وهي تنظر إليه شاحبة، وجملته هذه يكررها دون أن يضيف عليها شيئاً، غير وجهه المكلوم الحزين. لقد تعودت أن تسكن في وطنه غريبة، وألا يكون لها وطن غير وجوده وما يجود به عليها من حضن آمن ومستقر. وما الجديد في أن تتدبر أمورها وترتب حاجياتها، وتقعد في انتظار قد يطول شهوراً من أجل أن تسمع صوته أو أن تراه؟

في الصيف الفائت، بعد أن التقته في مسقط وجالا في تراثها وأسواقها، وتمازجا مع بحرها وسمائها وزرقتها، عادا يحملان بحراً ونخيلاً وثماراً، وعاد هو مختلفاً، وكأنه قابل هويته وأصله هناك. قال إن سلطنة عمان قريبة من تفاصيه وسمرته، فعادات أهلها الكادحين،

الملتصقين بالهوية والجذور، الملتهبين في القيظ، الساكنين تحت وارف الظلال نسمة وهدأة وسكون، هي في صميم تكويناته المتناقضة، بل الملتبسة على سارة التي ما تكاد تستوعبه، حتى تعود فتجهله مزيداً.

التقته بعدها صدفة، في مركز التسوق، وكان في ركن الملاهي يركب سيارة تتدلى منها ساقاه الطويلتان بشكل مضحك، وهو يقهقه كالمجنون. فوجئت به عندما رأته هكذا، حتى خيّل إليها أنه شخص آخر، فلطالما حالت رزانته وشخصيته التي تأنف المزاح بحجة مكانته الاجتماعية والأكاديمية، دون أن يعيشا معاً لحظات مرح، أو ينتشيا بضحك مسموع.

عدت ذلك اليوم أدراجي محملة بك وبصورك الجميلة في عيني والمنطبعة في ذاتي، عدت إلى طفولتي التي لا أذكر منها إلا أمي، وبعض فساتيني العتيقة التي كنت أكرهها وأزيد من تمزيقها، لتعيد أمي ترقيعها دون أن توجه لي لوماً أو عتباً.

كم هي حنونة أمي وصبورة، وقد عانت كل صعب ومر في الحياة، بعد أن تركها أبي مُمَزِقاً أوصالها، وممرغاً عنفوان أنوثتها وشبابها، مع أربع بنات صغيرات، ومن غير ذنب سوى أنه غيور على امرأة جميلة.

كنت صغيرة جداً ولم أكُ أفهم ماذا يعني أن تُضرب أمي وتُلعن وتُرفس وتُساط، بينما هي تؤدي كل واجباتها وأكثر. فقد كانت تخيط وتطبخ وتكنس، وكنت أظنها إلهة لأنها كانت تستطيع أن تصنع ألعاباً وملابس وحلوى، وهي تضحك. لا تتذمر، وتطوقنا وقت البرد وتفرك

بيديها أطرافنا حتى نهدأ في حضنها وننام، وقلما تحدثت بشيء أذكره، وكان هدوؤها السكينة المطلقة التي نطالع من خلالها عالمنا البسيط.

تركتنا والدتي في ملجأ حين لم يعد لديها ما تعطينا إياه، ولا أدري أي مصير أخذها للموت وكفل لنا الحياة دون وجه مبتسم. إلى اليوم، ملامحها لا تغيب عن عيني رغم السنين، وما زلت أتحسس دفء يدها كلما قرصني البرد ونازعتني أوجاعه. يا الهي، كم هي قاسية الحياة في ظروف الفقر المدقع، والظلم المتفشي، وسطوة الرجل على امرأة ضعيفة، وكم هو صعب استرجاع ذكريات قاسية ننأى عنها ولا تنأى عنا، فنلوكها بلوعة تكاد تخنقنا.

ملتصق رأسي بقطن الفراش الممزق، وفي أنفي رائحة الصابون الحجري وزيت الزيتون، ولا تنفك من معصمي حبال كنت قد وثقت عُقدها مع أخواتي ذات يوم بكينا فيه، حتى لم يعد في حناجرنا صوت يشي بوجود حياة. سمعنا طرق نبضنا متعالياً، حين استيقظنا على أصوات المربيات تعلمنا بغرق صيداء، اختي الكبرى، في بركة ماء تلونت بدمائها، خلف الملجأ، وأظنها قتلت ورمي بها دون رحمة هناك، حيث لا يأتي أحد إلى نعيق الضفادع وركود المياه المتجمعة من المجاري ونزف المكيفات...

حاولت سارة أن تكف سمعها عن تفاصيل قصة موت اختها التي فجعت الأخوات الثلاث، كما فجعت المربيات وكل من كان معهن، فقررت أن تواجه الموت وتتحدى خوفها، فربطت يديها بأيدي اخواتها

كي لا تضيع أي واحدة منهن أو تنتسى في الطريق، وقررن الهرب من هذا المكان الموحش، حيث كانت تأتي روح صيداء كل ليلة، لتلومهن كيف تركنها تغتصب وترمى كالشاة الذبيحة خلف الدار حيث لجأن قسراً وكرهاً وبلا حيلة.

جرين جرياً، وكانت وحوش الظلام تنهش من قفاهن ولم يلتفتن يومها إلا وقد سقطت خولة، فتدحرجت خلفها سارة ولحقتها خلود. ضحكن لمنظرهن هذا وقررن أن يفلتن أيديهن كي لا تتكرر هذه المهزلة. كانت سارة أصغرهن وأكثرهن جرأة، ولذلك كانت تفكر بصوت وتقرر دون أن تنتظر أياً من أخواتها اللواتي قد تكون الصور الملتصقة في أذهانهن عن أبيهن وعلاقته بأمهن والعذابات التي تجرعتها، ما لقينه من أذى في الملجأ وما عشنه من عوز، وما صُب فوق رؤوسهن مؤخراً من حمم عند وفاة صيداء، كفيلة بجعلهن يطعن دون نقاش، ويرتعبن من الأصوات العالية، ويرتجفن إن واجهن الصمت.

تفرقن كي يستطعن العيش، وتعاهدن أن يلتقين بعد أن تحصل كل واحدة منهن على سكن عائلي يكفل لها معيشة أفضل من الملجأ، وتنعم فيه بسرير ومخدة وغطاء ووجبة فردية لا جماعية، تطال لقمتها أياد عدة فلا يصل جوفها غير رغبتها ورائحة الجوع.

تفرقنا وكنت أقلهن حظاً في التنعم بالحياة! وحين التقينا، صرنا صديقات نحكي قصص البيوت التي تسكننا ولا نسكنها، إلا من أجل أن نجد غيرها لنرحل. لم نستقر يوماً، حتى وجدتني كبرت

دون أن أتعلم شيئاً من المعارف والعلوم والرياضيات، إلا التمثيل، فعبد القدوس، المسرحي الكبير في مدينة صفاقس آواني في محترفه الفني المسرحي. كان ثملاً طيلة الوقت، ولا يأبه من أكون ومن أين جئت، ولطالما حسبني صبياً، فشغّلني عنده حارساً على باب المسرح الصغير، وخلف الكواليس. كنت أنظف وأحياناً أشارك في التمثيل، فيكافئني بشيء من النقود والعطايا والملابس. كبرت لديه، وأنا أتعلم فنون الخشبة والإخراج، وتعلمت شيئاً عن «غوفمان»، ذلك الفيلسوف في علم الاجتماع الذي يرى الحياة بمجملها مسرحاً كبيراً، والبشر مؤدين لأدوار قد تكون اختيارية، أو إلزامية أجبرتهم على تأديتها، لكي تسير عجلتها وتكتمل في دورانها. وغوفمان هذا لم يُهمل حتى الكواليس، وكان يرى أن المرء في الكواليس يتزوق ويلبس ويتهيأ من أجل أن يواجه الجمهور، وكذلك نحن في الحياة نلعب أدواراً أمام الناس ونتهيأ قبلها للقائهم، فنصبغ أوجهنا وأرواحنا بما يناسب هذه الأدوار. وأصعب ما يكون هو نزع تلك الأقنعة التي تلتصق بالأرواح، فلا يعود فكاكها ممكناً.

أظنني لبست واحـداً بوجهٍ مبتسم وعينين تتسعان للكون، وتعمدت نسيان رفعه عن وجهي. نسيت ملامحي البائسة، وكانت إرادتي أن أكون سعيدة. نعم، لقد عشت مرارات، لكن ها أنا بوجهي الجديد أرى حياتي من عين متسعة كنافذة، بل كباب. صديقتاي خوله وخلود، أظنهما عاشتا أفضل مني، فمرة التقيت خلود وعلى ذراعها

تحمل رضيعاً، قالت إن صاحب البيت زوّجها ابنه وأنها استقرت وتبدلت أحوالها، فسألتها عن خوله فلم تجب.

ثم بعد أعوام، التقت سارة بخولة وكانت الأخيرة تخرج من معهد للموسيقى، فخالت أنها تعمل في التنظيف، هرعت إليها خولة واحتضنتنها، كانت سارة قد نسيت ماذا يعني أن تلتقي قدراً تحبه، وماذا يعني لها الاحتضان؟ قبلت يديها ورجليها ورأسها، حتى ضحكتا عالياً وقهقهتا. قالت:

أتعرفين؟ منذ افترقنا ذاك اليوم لم أسمع صوتي حتى اللحظة هذه، حتى ظن الذين أعمل معهم أني بكماء، وقد عشت على هذا الأساس معهم، أتعلم الموسيقى وأعزف وأشارك في مسابقات، وفزت مؤخراً في مسابقة جوائزها قدرت بمبالغ مجزية اشتريت بها شقة على جانب المدينة القديمة حيث البناية الخضراء التي ترقد بجانبها جثة صيداء، آثرت أن أكون قريبة منها، فروحها ما زالت تسأل عني ولا يطيب نومي إلا بلقائها، فأدعو لها ما حييت، وكلما عزفت لحناً جميلاً أهديتها لحنه وأفراحه. تعالي معي، ما أروع أن تلتقي بصوتك بعد خرس طويل، ونبضك بعد موت، وتلتقي بأمل بعد يأس.

ذهبت سارة معها، وعاشتا معاً. تذهب خولة باكراً إلى معهدها، وسارة إلى المسرح، حتى شاءت الأقدار أن تلتقي بشريك حياتها. حاولت سارة كثيراً أن تقنعها بالعدول عن فكرة التوحد مع الذات والعزوف عن الزواج، ونجحت قبل فوات الأوان. تزوجت خولة

وعادت سارة إلى وحدتها، ومسرحها الذي أبعدها سكرُ صاحبه وثمالته، عن تحقيق طموحها ببلوغ الاحتراف.

ثم هربتُ... كنت أريد أن أتعلم أي شيء يدنيني من الحياة. قابلت استاذاً في معهد للتطوير في المدينة نفسها، وقد رمته أقداره بين يدي، متعثراً، لتترامى فوق رأسي أوراقه ودفاتره. مثلت أنه أغمي عليّ، وأني بحاجة لمساعدة كي أفيق وأعود لرشدي وأمضي، ولكني لم أمض قط، حتى تعلمت في مكتبه كيف أمتلك أدوات الحياة وكيف أمارس تفاصيلها بذكاء، وما هي الذات وكيف أطورها، تعلمت كيف يكون للمرء ألف وجه؟، وكيف يستطيع أن يخلع الوجوه، ويبقى بوجهه الحقيقي حين يخاطب نفسه كي لا تتشوه حياته وتفسد. تعلمت أن «غوفمان» محق! ولكنه أفسد بالتمشهد أفكاراً، ودمغ حياة الناس بالزيف بفلسفاته تلك التي اعتقدت أنها السبيل لبلوغ المقاصد في الحياة.

... كان مكتب الأستاذ المختص في الاستشارات لتطوير الذات والأنا والبرمجة العصبية وضبط الانفعالات، كعلم حديث لحياة أفضل وأكثر تنظيماً، باباً شرع أمامي للحياة، فقد حصلت على شهادات معتمدة رغم تعليمي البسيط، واستطعت أن أقنع كبريات الشركات والمؤسسات بتوظيفي، حتى استقريت في مؤسسة «البداية» لتنظيم المؤتمرات الدولية، حيث التقيت قدري عزيز.

16

ترك عبد العزيز سارة عند باب الشقة مقبلاً رأسها بشفتين مرتعشتين وعلى عجل، وقد وضع متاعها على أعتابه، قائلاً: لا تقلقي سأعود إليك. ضمها معانقاً، ورجع مسرعاً إلى السيارة. وقبل أن يحدد وجهته مع السائق، أخرج هاتفه وعاود الاتصال بعبد الرحمن حيث وردته مؤخراً رسالة منه بأن «حدثني حال وصولك دبي».

كرر الاتصال مرات ومرات، ولم يجب عليه أحد. أخيراً أجابه عبد الرحمن. سأله عبد العزيز بانزعاج: أين أنتم لا مجيب؟ فأجابه عبد الرحمن: في بيت الحاج عبد الله القاضي، في حي الشرق، لا تتأخر. ثم أردف: الرجال حالياً في مسجد الحي خلف البيت القديم، الكل ينتظر حضورك. إذهب للبيت أولاً، ولا تجزع، فأمر الله نافذ ونحن مؤمنون بقضائه وقدره، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم. أقفل عبد العزيز الخط، وأعطى السائق العنوان بغصة وهو يلوك لوعة لا توصف، ودموعه تنهمر على خديه مبللة شعرات ذقنه التي تنتظر يديها لتشذبها، بعد أن أيقن أن التي فقدها اليوم هي الحياة التي ظل يسجد لله في كل صلاة حامداً إياه عليها.

هل أسدل الستار على قصتنا يا ميرة؟ مازلت أسترق الوقت في كل مرة أعود فيها إلى البيت، لأقرأ شيئاً من مذكراتك التي ما كانت تشي إلا بمزيد من الأسئلة حولك. أي امرأة أنت يا ميرة؟ وأنا ما زلت خلف الكواليس أبحث عن وجه ألاقيك فيه دون أن تكتشفي خيباتي وضعفي، دون أن تشتمّي عطر سارة، دون أن تلحظي أني غيرت تسريحة شعري وأطلقت لحيتي عبثاً، دون أن تسأليني عن ابتسامتي وتيهي، وعن كرشي الذي استدار مؤخراً، وغيرت إثره كل ملابسي؟ أنا مهمَل من دونك، بلا رياضة وبلا حدود في كل شيء. حتى في خيانتك أنا مسرف، ولا أدري أي وجه ألصقه اللحظة على ملامحي البائسة لملاقاتك. أظنني يائساً ومعدماً حتى من ملامح تليق بوداعك، أو بلقائك بعد صبر. أنت لا تستحقين إلا أن تكوني سيدة متربعة على عرش هذا القلب، ولكني رجل تاه من كثرة الحب، فبعض الحب يا ميرة كلما زاد عن حده صار قيداً بحثنا في الحياة عن فكاك وعن خلاص، وأي خلاص تهبنا إياه الدنيا يعلقنا به أكثر، ولكنها قلة الحيلة يا رفيقة العمر، هي قناعاتنا ورغبتنا في الاكتفاء عبثاً، هو وهمنا.

ما أقسى هذا الطريق، وما أبشع الصور التي يمر شريطها في رأسي، وأنا غافل عن لحظة قد تمر بي وتنسف ما تبقى من حيلتي وصبري على الحياة. لا أعرف كيف أفسر للأولاد أنك لن تكوني معهم؟ كيف سأعتني بعبد الرحمن الصغير، وأنا لا أعرف حتى أي حليب يشرب؟ كيف سأجمع وأطرح وأدرّس الرياضيات التي طالما فشلت فيها؟ من

سيلعب معنا على العشب عصراً، ومن سيغني كل الوقت مع البنات على الدرج صعوداً ونزولاً، وفي المسبح وحول الحديقة وعند الجدار الملون، وسيمتعنا ويسلينا ويفرح القلب؟ من سيرسم ويلون ويعيد ترتيب الصور بمنطقية مذهلة، ويعيدنا للأساطير؟

من يا ميرة سيقلم أظافرنا كل جمعة أنا ومحمد ومنصور، ويشذب لحيتي ويسرح شعر الأولاد والبنات، ويطيبنا بدهن العود قبل أن نمضي للصلاة؟ من سيفاجئني بسجادة الصلاة مخبأة مبخرة ومعطرة في جيب مقعد سيارتي، ومطوي معها كتيب الأذكار، وكل مرة تطوين طرف صفحة منه، تؤكدين لي أني بخيرمعك. آخرها كان الجمعة الفائتة، الصفحة (30)، «ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ» ، باب الحمد «؟ ومن سيعتني بأمي ويمر عليها ويذكرني بمواعيدي، ومن مثلك يا ميرة يقدر أن يستوعب مزاجي وعصبيتي وصمتي الطويل؟، من يعوضني هذا الغياب وحضور الألم الجاثم على صدري؟

ذات مرة، منذ سنين، قرر أن يكون لطيفاً، فاشترى زوج عصافير وقفصاً ذهبي الطلاء متقن الصنع، ممتدة بين جنبيه قصبة خشبية ملساء، وفي ركنين متجاورين منه مثبت وعاء صغير فارغ على شكل قلب، وآخر للماء على شكل جرة صغيرة. في سقف القفص، تعلق العصفوران مذعورين، مرتجفين، ينفضان رأسيهما بعنف، ويحدقان بعينين صغيرتين مغرقتين في السواد، متوقدتين بلمعان نافذ وحاد. غطى عبد العزيز القفص الذهبي بكيس ورقي به ثقوب، وتركه على

طاولة الطعام، وقبل أن يخلد الى النوم، كتب في ذاكرة هاتفها للتنبيه الصباحي: أيقظيني بفنجان قهوة من يديك، ولا تنسي راحة الحلقوم بالزعفران الأصفهاني، أحبك.

أفاقت ميرة من نومها مبكرة لتعد له القهوة قبل أن يفيق الأولاد، وقبل أن تنشر الشمس ضياءها في الأفـق، فتبدأ طلبات الصغار وتجهيزات المدارس، وينزعج عبد العزيز ويفر هارباً دون وداع. ولطالما وجدت ميرة أن هذه السانحة من الوقت تضاهي لذة النوم بعد تعب، خاصة وأن هاتفها ما زال يرقد في الحقيبة منذ عصر أمس، وأنها لا تدري بأمر الرسالة المختومة بحب.

سمعت صوتاً غريباً وهي تنزل من السلالم، فلاحقته حتى دنت منه، وإذا بخفقات الأجنحة تصفق بتردد على أعمدة القفص محدثة جلبة. فتحت برفق الكيس الورقي، احتضنت القفص وضمته إليها بشدة، أحست أنها ملكت حباً بين أضلعها، فإذا بالباب الصغير يشرع، يندلق الماء على قميصها العشبي المورد، ويلتصق العصفوران مغردين على أبجورة الطاولة القصية في الصالة الخضراء.

حاولت أن تلم ما تبعثر، وتلحق بالعصفورين علها تنجح في أن تمسك بهما، لكنهما ابتعدا الى سقف الصالة، وكلما دنت ابتعدا أكثر وهي فرحة بملاحقتهما، وإذا بعبد العزيز ينزل الدرجات متثائباً متثاقلاً، وميرة ترمي بنفسها بين أحضانه، معبرة عن مدى امتنانها لهذه الهدية التي لا يمكن أن تكون إلا من رجل عاشق مثله.

قالت ميرة: ما أجمل الحرية، سأتركهما هكذا يحومان في البيت،

وأترك القفص مفتوحاً ليتمرجحا ويشربا الماء ويأكلا من الحبوب الملقاة في قعر القلب المعلق. لكن كيف سنفهم الصغار ألا يتركوا باب البيت مشرعاً، كي لا ينطلقا للحديقة فنحرم صوتهما؟

فرح عبد العزيز أنه أخيراً استطاع أن يكسر حاجزاً شيدته ظروف الحياة بينهما، وكلما أراد هدمه تكالبت عليه المهام، ولم يكن يدري أن عصفوراً صغيراً هو العلاج.

ما زال العصفوران حائمين منذ سنين في الحديقة الخارجية للبيت، ولم يهربا يوماً إلا إلى شجيرات الليمون عند الجارة أم صالح، وأفنان الكروم المعلقة على عريشة ممتدة على جدارها الخلفي، لكنهما ما يلبثان أن يعودا مزقزقين مغردين.

17

حامت ميّادة بسؤالها على وجوه السيدات، تريد معرفة كيفية وفاة أختها ميرة. قالت لها أختها الوسطى ميّاسة أن تكف عن هذا الجنون والبحلقة في الوجوه، فحوادث الدنيا كثيرة ولله ما أخذ. بكت ميّادة فأشفقت عليها ميّاسة واحتضنتها بقوة، قالت لها إبكي هنا وسأبكي معك، ولن ننسى يوماً كنا نأتيها بحثاً عن أخت كبرى وأم مثلى، وعن صديقة تلمنا كلما بعثرتنا الظنون والحياة. لم تجف دموعي منذ عرفت الخبر، إلا أنني متيقنة أن الصواب ترك الأمور تمضي بسلام، تلك التي لا خيار لنا فيها، ثم صمتت منزوية تنبش في ذاكرتها عن صورة لا تجمعها بميرة. كل صورها تقاسمتها معها، كانتا لصيقتين حد التوأمة، ولطالما خشيتا أن تفسد عليهما الحياة أو عيون الناس هذه اللحمة.

بدأ الصباح بالتنفس، والنساء ما زلن يحطن بالجسد المكفن المسجى، قصص تروى فوق رأسه، فيما تستمر أخريات يبكينه منذ المساء.

نادت فاطمة بناتها و نور، كانت هذه الأخيرة قد غفت دون أن تشعر بحالها، فبدت شاحبة دون لون وهي تنهض متثاقلة، تجرجر قدمها التي

لم تستيقظ بعد. مشت فاطمة، فمضين خلفها، قالت لهن إن عبد العزيز في طريق العودة، وإن عليهن أن يكن قويات صابرات، ليودعنها بشكل يليق بها. ردت ميادة بنحيب مخنوق، ومياسة بابتسامة غريقة بالدموع، أما نورة فلوت نفسها على باب الصالة المطل على الفناء الخارجي، وقالت: سأعود بالفطور فلا بد أن نقوم بواجب السيدات في الداخل. احتضنتها فاطمة ومضتا إلى المطبخ تشرفان على إعداد الفطور وشاي الصباح.

قرفصت مياسة على الدرج، وجلست ميادة بجانبها، مستندة إلى ظهرها، لكنها ما لبثت أن اعتدلت في جلستها لتسأل أختها: أتظنين أنه مجرد حادث؟ إلى أين كانت ذاهبة في امتداد الصحراء؟ أيعقل أن تكون ذاهبة إلى عزبة الوالد ثم تاهت؟ ماذا جرى لها يا مياسة، فسري لي، أنت تعرفين أكثر مني، فدراستي في الخارج وزواجي أبعداني عن البيت والعائلة، وأظن أني ضيعت في ذلك الكثير، وما كسبت إلا الشهادة، ضيعت ضحكاتنا وجنوننا وفرحنا، ضيعت العروض المسرحية التي كانت تدربنا عليها، لنعرضها على أنفسنا ونصفق ونضحك ملء الروح، ضيعت ميزانسين العمل وتأخرت عن دوري معكم. قولي لي شيئاً من أغاني الصباح التي علمتنا أن نغنيها، ذكريني بالفستان الأزرق الذي أهدتني إياه ليوم العيد، حين غاب أبي وتخاذل كعادته، واحتارت أمي في ارضاء ذوقي، ولم تفلح إلا ميرة في ذلك. أعيدي إلي صوتي الذي خبأته في عنقها ذات بكاء حين اكتشفت أني حبلى بثلاثة توائم

وأني خائفة حد الموت من فكرة وجود قبيلة في بطني. قولي لي إن التي يبكون عليها ليست هي نفسها التي علمتني الرقص والغناء، وحفظتني آية الكرسي وسورة الفاتحة وأدعية الرقية الشرعية، قولي لي إنها ليست أمي وأختي وصديقتي، أو اتركوني أبكي، فأنا لا أبكي فرداً بل حياة.

لم تجبها مياسة، فدوامة الأفكار حيث تدور ميادة، هي نفسها التي تلف عالم مياسة بلا هوادة. لقد كانت ميرة كتومة تخفي أشياء تخصها، وكانت مياسة ترى أن ذلك أبسط حقوقها الإنسانية. فبعض التفاصيل التي لا تُعرف، تبقى كالدرر المكنونة ينتشي بها صاحبها لحظة يريد، فتشع من روحه وداعة وسماحة ورضا، كلما داعبه المكنون.

18

وقف عبد الرحمن يحاول أن يداري قلقه وخوفه واعتصار قلبه الحزين، دون جدوى. فبين كل آية يقرأها وأخرى، يلقي على الحاضرين نظرة موجعة بعينين دامعتين، ثم يعود ليواصل، فلا يدري أيقرأ في القرآن على روحها لتهدأ وتنام بسلام، أم على روحه ليهدئ من روعه ويخفف دفق القلق الحارق في عروقه. كيف سيواجه مصيره بعد الآن، دون مخبأ يدس فيه رأسه؟

لم تكن ميرة مجرد حب عذري حاول أن يسكن أفياءه كلما اصطلى من حر الحياة، وإنما كانت مودع سره في مناوشاته وغزواته الفاشلة على كل الجهات. علاقاته كلها خرج منها بخيبة أمل أعادته إلى نورة وبيته وأولاده. لم يكن يعرف ما يريد، ولم تكن نورة مقصرة في أمر أو واجب، وكان يثني عليها كلما عاد إليها. إلا أنه تاه بعد الحب الأول، ولم يلتق نورة إلا في بيت وأبناء، ضمن علاقة ما تلبث أن تبتدئ، حتى تنتهي بولادة طفل ومزيد من المسؤوليات.

كان يثق بميرة لأنها تحسبه لم يكبر بعد، رغم العلاقة الوثيقة ورسائل الحب المخبأة تحت لوزة البيت العتيق، ما جعل زوجته

تشكك في أن الحب ما زال قائماً بينهما، وتخشى من أن يكون هو السبب في وفاتها في براري العوير. أجل، ما زال كما لو أنه لم يكبر بعد، يحرص على أن تكون ألعابه له وحده، وينتقي ويختار قبل الجميع وبأنانية بالغة، مصراً على ألا يشاركه أحد أشياءه التي يخبئها، وان لم يحتجها، لفرح قادم.

ذات يوم من أيام طفولتهم العابثة البريئة، أمسك بطائر حبارى يبدو أنه تاه عن سربه وتمشى في الحوش، فقرر أن يربيه في قفص لا يتجاوز حجمه، ليمشي لا ليرفرف بجناحيه في قفص يضيق عليه. عانى الطائر في القفص وترجته ميره ونورة أن يطلق سراحه، ولم يفعل. كان يهتم به ويطعمه، وحاول أن يجمع من مصروفه المدرسي ليشتري قفصاً أكبر إرضاء ميره وتدخلها في شؤونه الخاصة، كما كان يقول لها. لكن، لم يمض وقت طويل حتى أفلتت ميرة الطائر من القفص، إلا أنه لم يعد يطير، فاكتفى بالتمشي في الحوش والنوم في القفص من جديد، حتى مات وسقط رأسه خارج أعمدته.

لم تلمه ميره على فعلته، وساعدته في دفن الطائر بعيداً عن أعين الضمير القاسية، لكن نوره بقيت تذكره بهذا الموقف، كلما خبّأ شيئاً يحبه، سرعان ما يخسره، فلطالما خسر الحلوى والآيسكريم ومعظم ألعابه، ومات الأرنب الذي سرقه من العزبة.

استوعبت ميرة ذلك مبكراً، وعرفت أن حبه لها لن يتجاوز مرحلة الحب العذري البريء، لامتلاك ما يريده هو وغيره، ليس لأنه يرغب

به فحسب، بل لأنه يلمع في أعين من حوله، ويريد هو الاستئثار به. حاولت أن تعالج هذا لديه، و قوّمت من اعوجاج في علاقته بنورة التي كانت تراه ملاكاً بأجنحة، قانعة بحدود العطاء التي لا تتجاوز حقوقها كزوجة.

وهو عابث حائم، لا يقنع ولا يشبع، ولا يخفف من غروره وأنانيته، إلا خيباته وضعفه وعودته بعد كل خيبة إلى نقطة البداية، حيث تقف ميرة وبيدها حقيقته كعصا سحرية، توجهها إليه كلما جاءها يطلب المشورة، كطفل مطيع خانع، يستمع ويجيب.

كانت علاقته بميرة أكبر من وساوس نورة، فهي ليست علاقة حب وخيانة، وإنما حيوات لم تقنعه. وكان ذلك كافياً لتكبر ثقتها بنفسها، كونها امرأته التي يعود إليها كلما ثقلت حمولته، وعلت أمواج الخيبة في وجه أشرعته.

التفت عبد الرحمن ليرى أن الوقت قد سرق منه دفتره الذي ملأه بالقصص والمحطات، وما استقر عند نقطة ولا فاصلة. هل كانت ميرة تعرف بزواج عبد العزيز من أخرى، وكتمت في نفسها غصتها، مؤثرة ألا تعيش ابنة خالتك وصديقتك نورة المأساة نفسها؟ كانت، كلما أبحرت بمراكبي في يم غيرها، تسحبني إلى بيتي وأبنائي، مادحة نورة ومصورة إياها امرأة لا تضاهي مكارمها وأخلاقها وحبها لزوجها.

19

ثمة إحساس يحوك أثوابه على الأجساد المنهكة، يطويها كما تطوى الجيف، لا يذر فيها منافذ للهواء، ولا يترك فرصة لحراك الإحساس في الدواخل. تلفتت فاطمة مجدداً حولها لتجد ابنتيها ما زالتا تنوحان، وتواسي كل منهما الأخرى بدموعها، وقد أوشكتا على أن تفقدا إحساسهما بالمكان والناس، وقد قررتا تقاسم أبناء ميرة لتربيتهم، متناسيتين أن لهم أباً وبيتاً وحياة.

باغتتهما فاطمة وقالت بصوت مغبون، مملوء بالحشرجة: اتركا عنكما هذا كله، وهلما لمساعدتنا، أنا ونورة في المطبخ، فالمجلس والصالات في بيت الجدة موزة، تغصّ بالمواسين من الأقارب والأصدقاء والجيران، ولا بد من تأدية واجبهم قبل الشروع بمراسم الدفن، وقبل حملها إلى مثواها الأخير. هذا الحزن الذي نجتره على روحها لا يليق بها، تمر بي طيوف عملها الخَيِّر، تمر بي ابتسامتها وضحكاتها، تمر بي لحظات صمتها وتفكرها، وحتى نقوشات دفاترها المدرسية، وحديث جِدّها وهزلها. تمر بي الطيوف معطرة برائحة الياسمين المجدل مع شعرها، أشتمه ودموعي تبلل وجنتي، فأدرك أني

أبكي حالي من بعدها، ولا أبكي حالها، فأنا ما زلت ألوك فَقدَ والدي بمرارة، وأوجاع غيابه حياً وميتاً، وها قد جاءني موت ميرة ولم تبرأ جراحي بعد. من أختكما تعلمت كيف نمضي دون تذمر ودون شكوى، لا تلبسنا إلا عباءة الغبن والتعب. أذكر أني ارتميت على شاطئ البحر ذات يوم من العام الماضي، حين كنا نصطاف في رأس الخيمة، في فندق ريكسوس. يومها اعتقدت أني من كثرة البكاء مت، وبقيت على وضعي، فإذا بها فوق رأسي تحدثني عن علاقتها بأبي، وكيف هَربت من خوفي من تبعات خرفه وعجزه وظلمات نسيانه، وأخذت هي الدور في ملاحقة ذاكرته وإشعال شمعات طريقه من أجل العبور به بأمان في مجاهل الحياة. حدثتني عن تفاصيل اخرى، حتى أني جلست دون وعي، وبحلقت في موج البحر وتلاطمه، ثم مسحت على صدري بلطف، وكانت كالنسمة الباردة التي أيقظتني من موت.

أنهت فاطمة كلامه، ومسحت على صدر بنتيها، فكفكفتا دموعهما وقامتا في حركة لا تكاد تخضع لقوانين الحراك، تتقدمان بحذر وبطء، كأن هناك وخزاً قاتلاً منثوراً على الأرض.

في المطبخ، بدأن يجهزن فطور المواسين، ولا حديث يذكر بينهن، حتى صاح هاتف نورة التي التقطته لترد. كان المتصل عبد الرحمن يخبرها بوصول عبد العزيز، زوج ميرة، إلى مجلس الرجال، بعد انقضاء صلاة الفجر، وعودتهم للتجمع من جديد في المجلس.

قالت له نورة قف معه وكن له سنداً، ثم بكت وأقفلت الخط،

واستدارت تصب الشاي بالحليب في الأكواب، تساعدها الجارات وتنهال دموعها وهي تمسحها بشال أصفر يغطي بعضاً من شعرها ويلتف على نحرها.

شعرت فاطمة بالآلام تنهش قدميها، فسحبت كرسياً خشبياً قديماً نحتت على ظهره دلافين وموجاً، وأسندت ظهرها إليه، فغاصت برفق يحملها دلفين إلى حيث غرق والدها، بعد أن فقد ذاكرته، فصار يتوه حتى عن طريق بيته، فيوصله من الجيران من يتعرّف عليه. كيف خانته الذاكرة وقد عاد غواصاً في لج البحر، يتذكر الأغاني والمواويل، ويلف على يده خلقة يظنها الموانئ، ويعيد أسماء الغواصين علينا، وكأننا نعرفهم، والمواقف التي تعرضوا لها ويصورها حتى كاد يغرقنا معهم.

لم يعد والدها يتذكر إلا حقبة واحدة من عمره، هي تلك التي كانت قبل أن يتزوج وينجب أبناءه التسعة، وقبل أن يرتبط بامرأة بدوية لا تشبه البحر ولا تعرف السمك ولا تشتهي الوقوف على شطآنه والتمرغ برماله المبتلة برائحة الملح. لم يكن يتذكر إلا رفاقه، وخيمة منصوبة قرابة البحر، يسكنها ووالده وإخوته، تدير أمورهم عجوز تدعى سلامة، كانت ترعى الصغار، وتسهر على راحتهم، تعجن الخبز وتسوي الأرغفة في تنور صغير. كانت جارة وفيّة، فوالدتهم توفيت بمرض عضال لم يمهلها، وتركت صغاراً في ذمة غوّاص كثرت أسفاره لسد جوعهم وإيوائهم. عبر بهم المركب إلى شاطئ الأمان بسلام، حتى توفي والدهم غرقاً، فلم يعد للبحر أمان، ولم يبق من بعده من

يلمهم ويرعاهم سواها هي، فحملتهم معها، تاركة البحر، وفرت بهم إلى أرض يباس، خوفاً من غرق قد يلفهم بأمواجه.

عاش والد فاطمة ومات، وهو يعشق تفاصيل الخيمة والعريش المنصوبة على شاطئ ممتد في الروح، بأفق أحمر عند المغيب، وزرقة وصفاء الشروق، لا يستهويه إلا منظر الغروب وانبلاج الفجر، وهو واقف يتأمل الموج وتلاطمه، ويستمتع بالنوارس وأسرابها المهاجرة، وبالسمك الصغير القافز من الموج العاتي، وكأنه طائرات صغيرة. امتهن الغوص كوالده، ورث الملح والموج والتعب والاغتراب، ثم تاجر باللؤلؤ وصار من أشهر الطواويش، وقد عرف كيف يختار أنفس أنواع اللؤلؤ وأندرها. علمه الغوص كيف يجاهد، ويناضل، ويقاوم، ويجاسر موجة، وكيف يصير فناناً يعزف على أوتار الماء، ويتنفس تحت الماء، وكيف يلتحم بعشقه بشغف، في ليالي الانتظار، مستلقياً في قوارب الصيد وسفنه، وقلبه معلق بغمامة. لم يكن والدها يشبع من البحر، وكأنه جُبل على حبه، فصار هو الحياة التي عاد إليها حين محت الذاكرة كل ما فيها من تفاصيل، حتى مات على شاطئ البحر حيث تهوى نفسه، ولم يعرف أحد عن موته شيئاً، حتى أشرقت الشمس على وجهه الحنطي الذابل.

لم تكن فاطمة الابنة الصغيرة والمدللة فقط، وإنما كانت مودع حكاياته وقصص عشقه، يغدق عليها بالحب واللآلئ، وبعد حين، صار يقتلها بحنينه إلى البحر والخيمة والعريش والنخلة الواقفة

بشموخ هناك كشاهد ودليل. وكلما آلمها زوجها أحمد بغيابه وزيجاته، تذكرت يتمها، وتذكرت دلالها على والدها، فتواسي نفسها، وتربت على خيبتها بالذكريات.

غصت فاطمة بريقها، فسعلت سعالاً هزها، فعدلت من اتكاءتها على الدلافين في ظهر الكرسي. انتبهت لها نورة و ناولتها كوب ماء انصب على روحها كالسلسبيل.

جاءت الجدة موزة تجر قدميها، وقد ثقلتا عليها من طيلة الجلوس مع المواسيات في الصالة. انحنت قبالة باب المطبخ، وركنت برأسها على خشباته التي لم يبق منها إلا ما يشبه اللوح الهرم المنقور، طالبة من فاطمة أن تنادي ابنها أحمد.

حضر أحمد مسرعاً، وقبل رأس والدته وارتمى في حضنها. قالت الجدة: هذا كل ما كنت أريده منك هذه اللحظة، رائحتك التي تسكن روحي، فقد ارتاعت روحي يا بني، منذ جاءني الخبر على كف مرتعشة. ضمني إليك يا بني، فقدماي ما عادتا تحملانني.

20

عند عتبة الباب، التقى عبد العزيز بوالد ميرة، عائداً من صلاة الفجر، يحمل ألمه على أكتاف مائلة نحو الأرض، ويلف كعادته شاله على رأسه وبعض وجهه، محتجباً عن عالم اسودت ملامحه. قبّل عبد العزيز رأس والد زوجته، فجرّه الأخير إلى عناق طويل وهو يردد: ذهبت وتركتنا، غادرتنا ميرة يا عزيز.

تسمر عبد العزيز في مكانه، فك ذراعيه من على كتفي عمه، فوقعتا كميت لا يستوعب الموت المفاجئ الذي يسرق الأرواح دون موعد، دون مبرر، دون مرض، دون علامة تذكر. آاااه ، دوت صرخته في المكان، هو الذي ما كان يسمع صوته، قليل الكلام، كثير العمل والقراءة والكتابة. كتم وجعه حين رأى بنات صغيرات يلعبن على مراجيح الحوش القديم، ومن بينهن ابنتاه محبة وعلياء. كانت الصغيرتان غارقتين في لهوهما، وقد تبدلت عليهما الأوقات، فلم يلتفت إلى موعد نومهما أحد، أو يسألهما عن طعام أو شراب.

أنزل عبد العزيز رأسه، فقاده والد ميرة إلى مجلس الرجال. أحاطه أهله وأقاربه وصحبه من كل صوب، يسألون الله له الصبر

والسلوان، وكل يذكره بفناء هذه الدنيا، وأنها محطة، وأن كل من عليها فان. تكاثرت من حوله الأصوات، فاحتجب بشاله كعمه تماماً، يريد أن يغيب كي يراها هي فقط. مال عبد العزيز جانباً ليهمس في أذن عمه أنه يريد أن تبتلع الصالة كل المواسين فتنتهي أصواتهم، مضيفاً أنه يريد أن يرى ميرة. أين ترقد؟ سأله، فأجابه أحمد بأنهم أخذوها إلى المسجد حيث وضعت من جديد على مصطبة، وفكوا عن وجهها الغطاء.

21

علت شفتيها المنشقتين ابتسامة، فبدا وجهها مشرقاً لم يبهت بعد، ولم تجمد الدماء فيه. أخذت النساء يسلمن عليها، مودعات، والرجال في الخارج ينتظرون دورهم، وأمها فاطمة، كلما سحبوها خارجاً، عادت ترتمي عليها. حتى دخل والد ميرة وقال لهن بصوته المبحوح الخشن: إكرام الميت دفنه، ووقف عند رأسها يقبله باكياً، هامساً: حبيبتي يا ابنتي، قريباً نلتقي... ما كان ينبغي أن أتركك تذهبين. أحسست بداخلي أنك فعلاً ذاهبة، لم أكن أدري إلى أين؟ لكني شعرت بشيء غريب، وتوجست من لهفتك، من رغبتك المستعجلة للذهاب...

دفع عبد الرحمن عبد العزيز لدخول الغرفة في المسجد، فوجد عمه راكعاً يبكي. انحنى عليه يسنده ويرفعه ليجلسه على كرسي قريب، خلف ستار قماشي مسدل في منتصف الغرفة. التفت نحو المصطبة، فإذا بالجسد الملقى هناك يبتسم. وضع رأسه على صدر ميرة وأغمض جفنيه، ولم يسألها صفحاً، ولم يلق عليها سلاماً، ولم يقبلها، وما فتح عينه إلا وقد صُبّ على رأسه الماء صباً، وقد نقل الجثمان إلى داخل

المسجد، فسيق خلفه سوقاً، وصلى ومن معه جالساً، لا تحمله ساقاه ولا ترتفع عيناه فوق الأرض شيئاً.

حُمل النعش وعليه الجثمان، وبقي عبد الرحمن مخلصاً في وقوفه خلف عبد العزيز، يسنده ومن خلفه صحب وأقارب وجيران، وقد كثرت الأيادي حتى حان موعد إنزالها في القبر. انطلق لسان عبد العزيز، وبصوت مخنوق، قال: أمهلوني لحظة أودعها وأسألها حاجة في نفسي، ثم هوى عليها كطفل أعمى يشتم رائحة ثوب أمه ويلتصق بها بعد ضياع. سأفي بوعدي لك، أن أكون أباً وأماً يا قلبي، فلتصفحي.

أنزلوها أمام عينيه في الحفرة، وهو يراقب ولا تحيد عيناه عن تراب ينهال فوقها. تعاظمت الحسرة في قلبه وكبر السؤال في حلقه: كيف ماتت؟ لم يسأل قط، بل اكتفى بمرارة المشهد. وحين غادروا، عاد، وترك البيت، حاملاً معه ابنتيه وعبد الرحمن الصغير، مخلفاً وراءه أناساً كُثراً ينوحون، وأصوات شيوخ من على المنابر يقرأون يس والقرآن الحكيم.

ترك عبد العزيز المجلس المخصص للرجال، وكل من له ملامحها، حاملاً قضية لا يعرف أين وضع مفاتيح حلها، في أي بقعة من الضمير خبأها، وأي تعقيد هذا الذي سيعكف على حله، ليتسنى له أن يعيش من بعده بسلام مع الأولاد. إلى أي جدار سيركن في البيت، وكل جدار يحمل صورتها ورائحتها، وهل سيعود إلى سارة بقلب موجع وصدر تختنق فيه تضاريس الحياة وثلاثة أطفال لا يعرفونها ويجهلون مصيرهم.

لحقته فاطمة إلى السيارة تسأله أن يبقي الأولاد لديها، وخاصة عبد الرحمن الصغير، فرفض مطأطئاً رأسه، ولم يسألها عن كيفية وفاة زوجته قبل يوم من ذكرى ميلاده، وقد تواعدا أن يكون مختلفاً، أن يأتيها هو بجديد يذهلها، وأن تفاجئه هي بشيء يُدمع عينيه فرحاً. أرهقني حبك يا ميرة، أرهقتني الحياة، أُزهقت روحي اليوم، وقد زفرتها مراراً وأنا أقف لا تحملني قدماي أمام قبرك. أحس، وأنا أحمل عبد الرحمن، وهو يلعب بلحيتي المبتلة، أن يديك الصغيرتين ما زالتا هنا، على وجهي.

22

أوصل عبد الرحمن عبد العزيز وأطفاله إلى الشقة، دون أن يتكلم معه. فضّل ألا يفتح أي حوار معه، وأي شيء يجدي اللحظة، وقد فات أوان كل شيء! فلا عتب بعد الموت، ولا حديث ينفع. يعرف أن عبد العزيز سيطرق الباب على سارة، بكفٍ منهكة، قبل أن يتذكر أن لديه مفتاح شقته هذه. سيدخل وتضمه سارة إليه كأم تعرف أن المصاب الذي حل بطفلها جلل، ثم تأخذ عنه عبد الرحمن. وقبل أن توصد الباب، ستدلف الصغيرتان بجدائل عاث فيها الوقت، وفساتين ملونة، وابتسامات، فتحييهما وتأخذهما في حضنها. هما لا تعرفان إلا أنهما مع والدهما الذي يلازم الصمت شفتيه.

عاد عبد الرحمن إلى المقبرة، ليخبر ميرة أنه ما زال يريد أن يشاركها الكثير. عاد يخبرها أن الفيلا الجديدة التي سجلتها باسم عبد العزيز، هدية لعيد ميلاده، سيسكنها مع امرأة غيرها، وأن الحياة لا تعطينا كل ما نريد. قال لها إن نورة حبلى وإن عشيقته كذلك حبلى، وإنه في ورطة بين طفل سيولد بفرحة، وآخر بغصة، وإنه لا حل بين يديه لتلك أو لهذه، وكلاهما تشغلان فكره حد الموت، وحد الغربة، وحد الألم الذي يتنازعه من رأسه إلى أخمص قدميه.

ميرة ... لا بد أن تفيقي وتحدثيني لماذا لم تجيبي على اتصالاتي، لماذا لم تردي على رسائلي؟ ألم أكن معك في كل حين ووقت، الصديق الذي يودعك سره وتأتمنينه على حياتك وبيتك؟ لم أكن أريد أكثر من أن أكون قريباً من مملكتك، كان يكفيني أن أعيش وأبنائي وزوجتي في ظل شجرة الدنيا، التي تظلنا بوارف ورقها وفنونها، ولا تبخل علينا، بستر وغناء وظل. كنت، كلما شطحت بفكري صوبك، وجهتني لنورة. كنت أعرف أني خوان، ولكن الأمانة عظيمة. أنت تعرفين ماتريدين ومتى، وأنا أعرف ما أريد كل حين ودون حدود. عشقت امرأة تشبه ضحكتك، وما زلت متعلقاً بك، عشقتها لدرجة أني غيرت اسمها وتاريخ ميلادها، ورضخت لجنوني وهواي. سميتها ميرة عبد الرحمن، وسجلتها في الدفاتر بيوم 22 من سبتمبر حتى يوافق يوم ميلادك، وعلمتها كيف تكون ظلاً يواري مساوئي.

كانت الظلال! كانت الظلال يا ميرة. ليتني عرفت كيف أخبرك الحقيقة، كنت أقول لك كل شيء ناقصاً، كنت أسمع صوتك المبحوح الجميل يخبرني باقي التفاصيل دون أن أرهق نفسي. تركتني أعتقد أني لم أطلعك على حقيقة الغيب الذي أتخفى دونها، وبيني وبين نفسي، كنت أحس أحياناً أنك تعرفين أكثر مني ما أريده، وما أدس في جيوبي كما كنت أفعل ونحن صغار.

غرز عبد الرحمن يديه في التراب، يدخل كفيه ويخرجهما، ثم ينثر التراب حول ظله في المكان، ينهض ويعود معتقداً أنه سمع صوتها، ثم يجلس ينوح، ويعاود سرد القصص التي لم تعرفها. أخبرها أنه كان يبدل الرسائل التي كانت تدفنها هي ونورة، تحت شجرة اللوز

في بيت الجدة موزة، من أجل أن يفاجئها حين تعود للقراءة من جديد، فتعتقد أن الشجر يثمر حديثاً ورسائل حب جديدة كلما نبشتا أكثر. ألم أكن مثيراً إلى الحد التي ترغبين؟ لماذا رفضت الارتباط بي إذن؟ ألم أكن أضحكك وأتقمص أدواراً وأعرف كيف أكون ساحراً وجذاباً؟ ألم تغاري يوماً من صويحباتك اللاتي خنك بعلمك وكنت تعرفين أني أتلقى رسائل كن يدفعنك لكتابتها لأخريات، وتصلني؟

ميرة، عودي.. لماذا تطوى صفحتك الآن، ومن يقود دفتيّ هاتين المهترئتين، وقد شاب شعري ولم أتب بعد من مغامراتي الفاشلة. أنت وحدك كنت تغفرين، وتسمعين، ولا أحد غيرك يفهمني، حتى نورة، تلك الغيورة التي لا تعرف شيئاً سوى أن تحبني. لا أستطيع أن أستسلم لامرأة لا تقاوم الحب، لا تثور، وتعلن انهزامها أمام جيوشي. نورة مدينة لا تعرف الحرب، لا تعرف إلا السلم، سكانها خانعون، ضعفاء، أخشى عليها أحياناً مني، من كلمة حب قد أتفوه بها، فتنهار دونها أمامي. بسيطة هي، محبة وحنونة، ولكني لا أحبها، ولا أحبني، ولا أعرف إلا أننا سنعيش من دونك فقراء.

توسد عبد الرحمن ذراعيه، وأغمض جفنيه المتورمين بعروق نافرة زرقاء، ثم نسي نفسه ونام.

- تمت -

عائشة العاجل

عودة ميرة

عائشة مصبح العاجل الشحي
رئيس قسم الإعلام بدائرة الثقافة والإعلام بالشارقة
ماجستير إعلام شامل
بكالوريوس علاقات عامة
دبلوم عالي في الإعلام الدولي
كاتبة وباحثة في مجال أدب الطفل ولديها قصة لليافعين بعنوان – فردة حذاء-
باحثة في مجال الإعلام الإلكتروني ومشاركة فاعلة في الندوات والملتقايات الفكرية والأدبية والإعلامية
لديها كتاب بعنوان – التفاعلية في مواقع الصحف الإماراتية –
تكتب زاوية شهرية في مجلة الرافد ومجلة مرامي
لديها العديد من المقالات والدراسات في مجال الطفل والأدب والإعلام الإلكتروني.

حبيبتي ميرة، ابتسامتك الساحرة ما تزال مرتسمة على شفاهك اللمياء، شعرك الأسود المنسدل كليل بهيم، يا حبيبة أمك، كيف لي أن أسرحه دون أن أؤلمك، وقد طال كالمدى، وهذه العشبة تسكن خصلك المبعثرة، من أين جاءت؟ وكثيب الرمل الغارق بين شعراتك؟ آه يا صغيرة، أواه يا أمي، كبرت لترحلي، قرارات رحيلك المفاجئة تباغتني كل حين، كم مرة فعلت فعلتك هذه بي؟ وكم استجديت عودتك دون مجيب؟ أي مآل هذا وأي قدر يحملك إلي عائدة دون تفسير؟ يلقيك بين يدي دون صوت، دون حراك. كم كنت أحسد نفسي أني وهبت فتاة متفردة في كل شي، حيويتك وصوتك الجميل، ذوقك وطبعك الراقي، حنيتك والتزامك، عنادك وخوفك علينا... من سيسأل عني يا أمي بعد الآن؟ من سيشاطرني تيهي وخوفي وأوجاعي؟ من يربت على كتفي ويضمني؟ ومن يحنُّ عليَّ وقد شاب شعر رأسي؟ من يعيد إليَّ رشدي، وخيباتي كثر؟ من يعلمني أن أشكو بثي وحزني إلى الله، وأن أتيقن كما فعل يعقوب حين قال "أعلم من الله ما لا تعلمون".

ISBN 978-9948-18-888-9
9 789948 188889

ISBN 978-614-432-485-1
9 786144 324851

قنديل | Qindeel
للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, Publishing, and Distribution
info@qindeel.ae
www.qindeel.ae